وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى
وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود

شخصيات من الحرمين الشريفين (٣٩)

سعد بن عُبادة الأنصاري

محمد سليمان

وأنا أقلّب قليلاً من صفحات التاريخ؛ حوادث وأخباراً وروايـات، التـاريخ الـذي جعلوا منه ديناً، ليس لأحد مسّه ولو بنقد بسيط، لا لشيء إلاّ لأجل أن يبقى الوجه الآخر المتخم بمصالح الحكّام، وما يستتبعها من الظلم والجور والتسلط والغلبة والقهر حاكماً جاثمـاً على صدور القرون والأجيال، له الكلمة العليا؛ وإلاّ فإنَّ لكلّ من ينبس ببنت شفة رافضـاً لحوادث وأفعال وأقوال، أو ناقداً لها ولشخصياتها سلاحَ الفتوى من فقهاء الســلطان يجـده

حاضراً يلاحقه ويسقطه، بل ويقتله، ويكون القاتل مأجوراً ومثاباً؛ لأنه وليّ الأمر، الذي لا يجوز الخروج عليه، أو نقده، فأعماله مبرّرة وإن قتل وظلم، ولأنّ قاعدة (من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر) التي أُسيئ فهمها، حين أُخرجت من دائرة البحث العلمي عند توفر شروطه إلى دائرة السياسة والسلطة، نجدها حاضرةً لتبرير ما ارتكبه سلاطين الجور وفقهاؤهم بحقّ صالحي الأمّة ورعيتها، فأنت معارضاً كنت أو ناقداً، مصيرك الحكم عليك بالارتداد في الدنيا والنار في الآخرة ـ وكأنَّ قاعدة الاجتهاد، التي عاث سوءُ استخدامها في تاريخنا ومجتمعنا فساداً واعتداءً وظلماً، والتي راحوا يتوكأون عليها ـ لا تشملك وليس لك نصيب منها، وبالتالي ليس لك حقٌّ في أجرها...

إنه لأمرٌ يُثير الاشمئزاز حقًّا أن يُصاب فقهاء الأمّة، الذين يجب أن يكونوا حصنًا لها ولكرامة الإنسان وعقله وفكره بهوس فتاوى التكفير والتضليل، التي كادت تملأ تاريخنا وما زالت للآخر المختلف معهم في رأي أو قول أو فعل أو موقف، وبالتالي فما على الإنسان المفكر والباحث إلاّ أن يبقى أسير واقعٍ مريرٍ مملوءٍ بعقد التسلط والهيمنة، وسلفٍ لا يصحُّ تجاوزه؛ حتى كاد أن يُعبد من دون الله تعالى...!

فأنا أقلّب هذه الصفحات، وجدتُ صحابياً جليلاً عظيماً، عرف بقوة شخصيته ودفاعه عن رأيه، لم تشفع له مكانته الاجتماعية، وعِظَمُ مواقفه، التي شهدت بها صفحات أخرى من التاريخ، ونطقت بها أقلام المؤرخين، فاغتيل على غفلة منه بعملية لا تخلو من تنظيم وعمد وخسّة؛ انتقاماً لموقف جريءٍ ظلَّ متمسكاً به رغم الوهن الذي وقع فيه قومه، وخذلان آخرين له، ولم يرقب فيه لومة لائم، ولم يُخفه غضب سلطان، ولا تهديد بقتل..!

إنه سعد بن عبادة!

والذي دعاني للكتابة عن سعد هذا، هو أنَّ ما حدث له في حياته، وبالذات في السقيفة وبُعيدها حتى وفاته، يثير لا فقط الأسف بل العجب والاستغراب لسرعة ما آلت إليه الأمور والأحداث حين رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى دار الآخرة!

تجسّد هذا في موقف هذا الصحابي من السلطة يومذاك، وموقف الخلافة منه أن

يُشتم، بل ويُضرب ويُهدد بالقتل، فيُهاجر أو يُهجّر أويُنفى إلى الشام، كما نفت السلطة بعده بعقد أو أكثر قليلاً الصحابي الجليل أباذر إلى الشام أيضاً، ثمَّ عادت به لتنفيه أخرى فيموت وحده في الربذة... وهو من رُوي بحقّه أنَّ رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال عنه: «ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق لهجةً من أبي ذر»![1]

وحين قُتل سعد في الشام؛ يُتهم جنّيٌّ بقتله، ولم يذكروا لأي الطائفتين ينتمي ذلك الجنيُّ القاتل؛ أهو من المسلمين أم من القاسطين؛ فالجنُّ طائفتان ﴿**مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ**﴾ بعد أن رآه قد بال في ماء راكد، فرماه بسهمٍ أرداه قتيلاً!

لكنه اغتيال قد يكشف الغموض عنه بشيء من التدبر والإنصاف، فللسلطة أحكامها!

واستغربت أيضاً أنّ بعض المؤرخين، وكأنهم لا فقط رأوا مقتله، بل سمعوا بيتَ شعر لهم؛ ودونوه لنا دون أن يُكلّفوا أنفسهم كيف رأوا الجنّ؟ وفي أي شكل هم؟ وكيف استطاعوا الاستماع إليهم؟!

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
و رميناه بسهم فلم نخطئ فؤاده

لا أدري كيف يريد منا هذا التاريخ، أن نصدّقه، وأغلبه كُتب إرضاءً للسلطة أو خوفاً منها، أوتعصباً لجهة ما وبغضاً لأخرى؟!

لا أعلم كيف أستطيع تصديق الخبر المزعوم؛ الجنُّ تقتل سعداً؛ لأنه بال في ماء راكد؟! وكأنَّ غيره لا يبول إلاّ في ماء جارٍ في نهر أو بحر!

وإذا كانت ثقافة الجنِّ الصحية عالية، ومعرفتهم بخطورة تلوث البيئة، فلماذا لم تقتل أو على الأقل تحاسب ذلك الأعرابي الذي بال في مسجد رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ ... وأمر النبيُّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ

---

١. انظر مقالتنا عن الصحابي أبي ذر في العدد ١٣ من هذه المجلة.

أن يُصب على بوله سجلٌ من ماء، يعني: دلو من ماء..!

أو أنَّ الجنَّ ضد المساجد وحرمتها، فلا تشملها الصحة العامة والحفاظ على البيئة وسلامتها...؟!

وقد رأيت مَن لم يستغرب من قتل الجن لسعد وكيفية ذلك، وبدل أن يحقق بصحة هذه القصة، ذكر أماكن لا يصحُّ التبول فيها: موارد الماء والظلال النافعة للناس وطرقهم... وكراهية التبول في أخرى: شقٍّ أو ثقب، وراح يتخذ من تبول سعد شاهداً أو مثالاً على هذه المسألة الفقهية، وما يترتب من ضرر، فقد ذكر في المغني:

ويكره على أن يبول في شق أو ثقب لما روى عبد الله بن سرجس «أن النبيصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِه نهى أن يبال في الجحر».[1]

لأنّ عبد الله بن المغفل قال: قال رسول اللهصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِه: «لا يبولن أحدكم في مستحمه».

وهنا موضع الشاهد:

ولأنه لا يأمن أن يكون فيه حيوان يلسعه أو يكون مسكناً للجن فيتأذى بهم، فقد حكي أنّ سعد بن عبادة بال في جحر بالشام ثم استلقى ميتاً، فسمعت الجن تقول:

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده.[2]

أمر عجيب، وكأنَّ سعد بن عباده، الذي كان قريباً من رسول اللهصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِه وحريصاً على مجالسه المباركة، وهم يعدّونه فقيهاً و راوياً روى عن النبيصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِه أحاديث، وروى عنه من الصحابة عبد الله بن عباس، وبنوه قيس بن سعد وسعيد بن سعد وإسحاق بن سعد

١. رواه أبو داود : ١٠٩ .

٢. كتاب المغني لابن قدامة، كتاب الطهارة ١ : ١٠٧ فصول في آداب التخلي .

وغيرهم.[١]

لم يسمع بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله هذه، ولم يعرف آداب قضاء الحاجة، وأماكن الاجتناب وكراهية بعضها، وكأنَّ الأرض ضاقت عليه، فلم يجد إلاّ أن جحراً ألقى فيه بوله ولقي به حتفه، فابتهجت الجنُّ وأنشدت: نحن قتلنا...!!

إذن لنقف عند هذه الشخصية، التي شغلت مواقفها صفحات من تاريخ العصر الأول للإسلام طيلة خمسة عشر عاماً تزيد قليلاً أو تنقص؛ بسبب اختلاف الأقوال في وقت اغتياله رضوان الله تعالى عليه...

إنه سعد بن عبادة بن دُليم بن حارثة بن أبي خزيمة أو حَزيمة أو حليمة، وقيل: حارثة بن حِزام بن حَزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الساعدي...

له كنيتان :

الأولى وهي الأصحُّ أبو ثابت، ولم يكن له ابنٌ اسمه ثابت، فيما الأُخرى أبو قيس، وقيس ابنه؛ الصحابي الجليل المعروف...

أمُّهُ وخالتُه :

فأمُّه اسمها عَمرَة بنت مسعود بن قيس بن زيد مَناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار.

وأُمُّها: عُميرة بنت عمرو بن حرام بن عمرو بن زيد مَناة.

أسلمت عمرة وبايعت رسول الله صلى الله عليه وآله، فنالت صحبته صلى الله عليه وآله، وأدركها الموت، حين كان رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة دومة الجندل في شهر ربيع الأول سنة خمس هجرية، ومعه سعد بن

١. تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٠ : ٢٣٧ وغيره .

عبادة ، ولما قدمﷺ جاء قبرها فصلّى عليها. وهنا سأل ابنُها سعد رسول اللهﷺ:

هل ينفعها شيءٌ إن تصدّقتُ به عنها؟

قالﷺ: نعم.

قال: فإني أُشهدك أنَّ حائطي المخراف صدقة عنها! والحائط هو البستان.

أما خالته بل خالاته: فإنَّ خالته اسمها عَمرَة أيضاً كما ذكروا، إلاّ أنها عمرة بنت مسعود الصغرى، وقد أسلمت هي الأخرى؛ حين بايعت رسول اللهﷺ مع جمع من النساء المبايعات...

وإذا أخذنا بقول ابن سعد، فإن له أربع خالات، اسم كل واحدة منهن عمرة كاسم أمّه. قال ابن سعد: كنَّ خمس أخوات اسم كل منهن عمرة؛ أسلمن وبايعن...[1]

ولسعد إخوة وأخوات :

ـ سهل بن عبادة، له صحبة. وفي قول: ابن أخيه.. فقد ذكر في الإصابة ابن أخ له اسمه سهل بن فلان بن عبادة الأنصاري الخزرجي، حيث قال: سهل بن فلان بن عبادة الأنصاري الخزرجي بن أخي سعد بن عبادة، روى الطبراني من طريق بن أبي الزناد عن أبيه عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أنّ أبا أسيد صاحب النبيّﷺ قال: سمعت النبيّﷺ يقول: «خير دور الأنصار بنو النجار» الحديث.

فبلغ ذلك سعد بن عبادة، فوجد في نفسه، فقال: أسرجوا إلى حماري حتى آتي النبيّﷺ.

---

١. طبقات ابن سعد: النساء (١١٥٠٨-١١٥١٢)؛ أُسد الغابة، ترجمة سعد بن عبادة؛ الإصابة في معرفة الصحابة ٣١٨٠ سعد بن عبادة بن دليم...؛ تاريخ دمشق، لابن عساكر ٢٠ : ٢٤٢؛ المعجم الكبير ٦ :٢٠؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٩٤٤، حليمة؛ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم : ٣٦٥ وانظر الهامش: خزيمة ـ حزيمة.

فقال: ابن أخي سهل أتذهب تردّ على رسول الله ﷺ قوله؛ الله ورسوله أعلم؟!

فأمر بحماره فحلَّ عنه.

وأصله في مسلم وأخرجه بن أبي خيثمة أيضًا ولم أرَ لسهل ذكرًا في شيء من الكتب والمسانيد ولا في أنساب الأنصاري. فالله أعلم.

من هذا يستفيد بعضهم أنّ سهلاً ابن أخيه لا ابنه.

ـ ليلى بنت عبادة بْن دليم بْن حارثة بن... وأمّها عمرة الثالثة بنْت مَسْعُود بْن قَيْس ابن عَمْرو بن...

أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ، وهي زوجة الصحابي خلاّد بن سويد بن ثعبلة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج. وقد استشهد هذا الصحابي في غزوة بني قريظة بعد أن شهد قبلها كلاً من معركة بدر وأحد والخندق، وقد ولدت له السائب بن خلاّد.

ويبدو أنَّ لسعد أخاً اسمه عبادة بن عبادة، إن صحَّ ما ذكر في ترجمة أُسد الغابة لأخته ليلى، حيث ذُكر التالي:

لَيْلَى بنْت عبادة الأنصاريَّة الساعديّة أخت عبادة بن عبادة.

بايعت رسول الله ﷺ. قاله ابن حبيب.

ـ مندوس بنت عبادة بْن دليم بْن حارثة بْن ... بن كعب بن الخزرج .

وأمّها عمرة الثالثة بِنْت مَسْعُود بْن قَيْس بْن عَمْرو بن ...

وكانت من النساء اللاّئي أسلمن وبايعن الرسول ﷺ. وهي زوجة سماك بن ثابت بن سفيان بن عَدي بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج. ولدت له ثابتاً.[١]

١. جمهرة أنساب العرب ٣٦٦؛ الإصابة رقم ٣٥٤٩ وانظر ٣٥٥٨ سهل...؛ أسد الغابة ٥: ٥٤١ ترجمة أخته ليلى؛ الطبقات، لابن سعد ٨ النساء: ٤٤٣٧ ، ٤٤٣٨ .

زوجاته :

فُكيهة بنت عبيد أو عبد بن دليم... بن طريف بن الخزرج بن ساعدة. وهي أُمُّ قيس وأُمامة... أسلمت وبايعت الرسولﷺ.

غَزية أو عدية بنت سعد بن... بن طريف بن الخزرج بن ساعدة. وأُمُّها سلمى بنت عازب بن خالد بن الأجش من قضاعة.

وهي أمُّ سعيد بن سعد... أسلمت وبايعت الرسولﷺ.

أولاده :

له ثلاثة من الذكور وبنت واحدة:

ـ قيس بن سعد بن عبادة، الصحابي الجليل المعروف، بل هو الأشهر من ولده، وكان بمنزلة صاحب الشرطة لرسول اللهﷺ، وهو والي مصر من قبل الإمام عليٍّ عليه السلام...[١]

ـ سعيد بن سعد، حظي بصحبة رسول اللهﷺ، وكان والياً لعليٍّ عليه السلام على اليمن... يُقال: له عقب في بلاد الأندلس...

ـ إسحاق بن سعد، يبدو ليس له ذكر إلاّ في موردين: الأول من قبل الذهبي وهو يذكر من روى عن سعد بن عبادة حيث يقول: ومما روى عنه أولاده قيس وسعيد وإسحاق.. والثاني: حُكي أنّ الطبراني أسند رواية إليه في معجمه الكبير ٦ : ٢٤ ولم أجدها فيما تيسر لي. ولكني وجدت في مسند أحمد: حدثنا يونس حدثنا حماد حدثنا عبد الرحمن بن أبي شميلة عن رجل ردّه إلى سعيد الصراف عن إسحاق بن سعد بن عبادة عن أبيه قال رسول اللهﷺ: «إنَّ هذا الحيّ من الأنصار مجنة؛ حبهم إيمان وبغضهم نفاق».

---

١. انظر العدد ٣٢ من هذه المجلة .

ـ أُمامة بنت سعد، ذكرت مع ترجمة أمّها فكيهة فقط.[١]

إسلامه :

كان من وسائل الدعوة إلى الله تعالى ودينه المبارك الإسلام؛ أنَّ رسول الله ﷺ يلتقي بقبائل العرب القادمة إلى مكة في مواسم معينة، يعرض نفسه عليهم، يخبرهم بأنه نبيٌّ مرسل من الله تعالى، يُقيم لهم الدليل على بعثته، يدعوهم لنبذ عبادة الأصنام، وأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن يكونوا مسلمين، يبيّن لهم ما بعثه الله به، يتلو عليهم آيات قرآنية، يعظهم، يبشرهم، يُنذرهم... يطلب منهم أن يصدّقوه وينصروه..، فأجابه رهط من الخزرج كان من ضمن تلك القبائل؛ إلى ما دعاهم إليه، وكانت هذه بداية دخول الإسلام إلى يثرب، عبر إسلام طائفة من الخزرج عند العقبة... قال ابن إسحاق: فلما أراد الله عزَّوجلَّ إظهار دينه، وإعزاز نبيّه ﷺ وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كلّ موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً...

وقال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه، قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ، قال لهم: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج، قال: أ من موالي يهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟

قالوا: بلى.

---

١. أُسد الغابة، لابن الأثير؛ السيرة النبوية، لابن هشام؛ الطبقات، ابن سعد ٨ : الأرقام: ٤٤٣٩، ٤٤٤٠، ٤٤٤١؛ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم : ٣٦٥؛ الإصابة؛ سير أعلام النبلاء؛ المعجم الكبير، وغيرها. مع اختلاف في بعض أسماء نسبه .

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزَّوجلَّ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أنّ يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إنَّ نبياً مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وآله أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبيّ الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدّقوا.

وبعد سنة وافى اثنا عشر منهم، فبايعوا النبيَّ بيعة الفداء، وهكذا دخل الإسلام يثرب، ولم تبق دار من دور الأنصار؛ إلاّ وفيها ذكرٌ من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة لما أسلموا يكسرون أصنام بني ساعدة... كما كان سعد بن عبادة إضافةً إلى كونه ممن شهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار.. كان أحد النقباء الاثني عشر في نظام النقباء الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة ويبدو أنهم بعدد بطون قبائل المدينة التابعين للأوس والخزرج، يمثل كل واحد منهم قبيلته، وهو جزء من نظام لترتيب أوضاع المدينة في إدارة شؤونها، كان هذا في بيعة العقبة الآخرة؛ حين توافى السبعون من الأنصار ومعهم امرأتان، وقد بايعوه، فضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيبًا، فلا يجدن منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيره... فلما تخيّرهم، قال للنقباء: أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي.

قالوا: نعم.

فلما بايع القوم وكملوا، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «انفضوا إلى رحالكم، فتفرقوا إلى رحالهم».

سعدٌ في الأسر :

مع أنَّ بيعة العقبة تمّت سرًّا، إلاّ أنَّ خبرها طرق مسامع مشركي قريش، فما إن أصبح القوم حتى غدت عليهم جلّة قريش وأشرافها في منازل وشعب الأنصار، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم.

فانبعث من هناك من مشركي الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه.

فلما رجعت قريش من عندهم، رحل البراء بن معرور... وتلاحق أصحابه من المسلمين، وجعلت قريش تطلبهم في كلّ وجه.. وحزبوا عليهم، فأدركوا سعد بن عبادة، فجعلوا يده إلى عنقه بنسعة، وجعلوا يضربونه، ويجرّون شعره، وكان ذا جمّة، حتى أدخلوه مكة..

وفي خبر:

ونفر الناس من كل منى، فتنطس القوم الخبر، فوجدوه قد كان، وخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو، أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيباً. فأما المنذر فأعجز القوم، و أما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، و يجذبونه بجمته و كان ذا شعر كثير.

وهنا يقول سعدٌ:

«فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علي نفر من قريش، فيهم رجل وضيء أبيض، شعشاع حلو من الرجال قال: فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير، فعند هذا،

قال: فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة. قال: فقلت في نفسي: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير».

وواصل كلامه قائلاً: «فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ آوى لي رجل ممن كان معهم». قال ابن هشام: وكان الرجل الذي آوى إليه أبا البختري بن هشام أو هاشم.

فقال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟

قلت: بلى، والله، لقد كنت أجيز لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف!

قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما.

قال سعدٌ: ففعلت.

وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إنّ رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً؟

قالا: ومن هو؟

قال: سعد بن عبادة.

قالا: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده.

فجاءا فخلَّصا سعداً من أيديهم، فانطلق إلى قومه، وقع هذا بعد أن عُذب سعد؛ سيد الخزرج، وزعيم يثرب، وكان الذي لكم (لطم) سعداً سُهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤيّ.. وهو الذي قبل الإسلام كان متفضلاً عليهم يُجير مستجيرهم، ويُكرم وفادتهم...، لم يُبالوا بشيء من ذلك، عذبوه أيما عذاب، وقد ربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله وعادوا به إلى مكة، حيث احتشدوا حوله يضربونه وينزلون به ما شاءوا من العذاب؛ حتى انفرد سعدٌ من جميع الأنصار بتعذيب قريش الذي نزل به وبالمعذبين من المسلمين في مكة.

وروي أنَّ الأنصار كانوا قد ائتمروا حين فقدوا سعداً أن يكرّوا إليه، فإذا سعدٌ قد طلع عليهم، وبهذا لم يقع بين الأنصار ومشركي مكة قتال أو غيره، فرحل القوم جميعاً إلى

المدينة.

وكان أولُ شعر قيل في الهجرة بيتين، قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس، أخو بـني محارب بن فهر:

تداركت سعداً عنوةً فأخذته

وكان شفاء لو تداركت منذرا

ولو نلته طُلت هناك جراحه

وكانت حريًّا أن يُهان ويهدرا

أو

وكان حقيقاً أن يهان ويهدرا

فأجابه حسان بن ثابت فيهما، فقال:

لستَ إلى سعد ولا المرء منذر

إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمّرا

فلولا أبو وهب لمرَّت قصائد

على شرف البرقاء يهوين حُسّرا

أتفخر بالكتّان لما لبسته

وقد تلبس الأنباط ريطاً مقصّرا

فلا تك كالوسنان يحلم أنه

بقرية كسرى أو بقرية قيصرا

ولا تك كالثكلى وكانت بمعزل

عن الثُّكل لو كان الفؤاد تفكّرا

ولا تك كالشاة التي كان حتفها

يحفر ذراعيها فلم ترض محفرا

ولا تك كالعاوي فأقبل نحره

ولم يخشه ، سهماً من النبل مضمرا

فإنا ومن يهدي القصائد نحونا

كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا

وكان لإسلام سعد ومن معه أثره البالغ على مشركي مكة حتى أنَّ قريشاً سمعت هاتفاً على أبي قبيس يقول:

فإن يسلم السعدان يصبح محمد

بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فقال أبو سفيان: من السعدان؟ سعد بكر، سعد تميم؟ فسمعوا في الليل الهاتف يقول:

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا

ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا

على الله في الفردوس منية عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى

جنان من الفردوس ذات رفارف

فقال أبو سفيان: هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.[١]

الأنصار في آيات قرآنيّة:

فالخزرج مع الأوس أخوان لأم وأب، وأصلهما من اليمن من سبإ، قبيلتان كبيرتان؛ شكّلتا ركني الوجود الاجتماعي ليثرب.. وقد وقعت العداوة والبغضاء بينهما، فكانت حرباً طويلة دامت مئة وعشرين سنة، لم تطفأ إلاّ بمجيء الإسلام، الذي لا فقط جعلهما تحت اسم واحد (الأنصار) تسميّة قرآنيّة مباركة، بل ألّف بينهما برسول الرحمة محمد صلى الله عليه وآله، الذي راح صلى الله عليه وآله يُلاحقهم تهذيباً وتوعيةً وتأليفاً وحلاً لما يقع بينهم من نزاع نتيجة ماض مازالت آثاره في نفوسهم وإن أسلموا، وسيئاته تطفو على العلاقات بينهم، وما التفاخر والتكاثر إلاّ واحدة من الأضرار التي أراد الإسلام نبذها؛ حتى وإن اختلف مضمونهما أو متعلق كلّ منهما عمّا كانا عليه في الجاهلية، بعد أن آمنوا بالدين الحنيف، وخلق لهم فيه رموزاً طيبة ومواقف جليلة تستحق الثناء والمدح والفخر.. وحتى لا يكونوا مقدمةً لنزاع، لما يتركاه في النفوس من بغضاء، قد يؤدي إلى الهلاك، هذا ما نجده فيما ذكروه في سبب نزول هذه الآية: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾.[٢]

أنَّ رجلين من الأَوس والخزرج؛ ثعلبة بن غنم من الأَوس وأسعد بن زرارة من الخزرج افتخرا؛ فقال الأَوسي: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل

١. سيرة ابن هشام ٢: ٤٥١ ـ ٤٥٢؛ وتاريخ الطبري ٢ : ٣٦١ ــ ٣٦٨؛ وطبقات ابن سعد ١: ١٥٠؛ الاستيعاب رقم ٩٤٤ .

٢. آل عمران : ١٠٣ .

الملائكة، ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدين ، ومنّا سعد بن معاذ الذي اهتزَّ عرش الرحمن له ورضي الله بحكمه في بني قريظة!

وقال الخزرجي: منّا أربعة أحكموا القرآن أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأَنصار و رئيسهم!

فجرى الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا وناديا؛ فجاء الأَوس إلى الأَوسي؛ والخزرج إلى الخزرجي، ومعهم السلاح!

فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله فركب حماراً، وأتاهم، فأنزل الله هذه الآيات فقرأها عليهم فاصطلحوا.

فيما حظيا في آيات قرآنية أخرى لا فقط بثناء كبير، وإشادة بمواقفهم، بل برضا الله تعالى عنهم وبأجر كبير:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ...﴾.[1]

﴿وَٱلسَّابِقُونَ ٱلأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِىَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.[3]

ففي واحد من أسباب نزول هذه الآية، ما جاء عن ابن عباس أنه قال: قال

---

١. الأنفال : ٧٢ .

٢. التوبة : ١٠٠ .

٣. الحشر : ٩ .

رسول الله ﷺ يوم بني النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة».

فقال الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ...**﴾.

لهذا سمّوا بالأنصار؛ لأنهم ناصروا رسول الله ﷺ ومن معه من المهاجرين، فهم ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُواْ**﴾، وهما شركاء في هذه الصفة المباركة، إذ كانوا أوفياء لما قطعوه على أنفسهم في بيعتهم لرسول الله ﷺ حين قال لهم: «أبايعكم على أن تمنعوني ـ إذ قدمت عليكم ـ مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

فتمّت بيعتهم له على ذلك، بايعوه على النصرة والمنعة، وقام منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس كفلاء على قومهم.

ولأنهم جعلوا للمهاجرين مأوى يأوون إليه، إذ أخرجهم قومهم من منازلهم، ونصروهم على أعدائهم وأعداء الله من المشركين بالقتال معهم. فهم يستحقون هذه الصفة، بل كانوا بحق أنصاراً لله تعالى ولرسوله ﷺ كما سمّاهم التنزيل العزيز:

﴿**وَٱلسَّابِقُونَ ٱلأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ...**﴾.[1]

﴿**لَقَدْ تَابَ ٱللهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنصَارِ...**﴾.[2]

فعن غيلان بن جرير: قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار كنتم تسمون به، أم سماكم الله؟ قال: بل سمانا الله![3]

---

١. التوبة : ١٠٠ .

٢. التوبة : ١١٧ .

٣. انظر كتب التفسير؛ وأسباب النزول؛ وصحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار (٣٠٧/٣٧٧٦)؛ تاريخ دمشق، لابن عساكر ٢٠ : ٢٣٨ .

وفي أحاديث نبويّة :

حظي الأنصار بذكر طيّب على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله ومن ذلك ما نسب إليه صلى الله عليه وآله أنه جعل: «إنَّ هذا الحيّ من الأنصار مجنة؛ حبّهم إيمان وبغضهم نفاق».

وأنه صلى الله عليه وآله أوصى بهم:

«يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإنَّ الناس يزيدون، وإنّ الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي التي آويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».

لقد بالغ الأنصار في دفع غوائل الحاجة، التي كانت تحيط بالمهاجرين، وأكرموهم أيما إكرام حتى كانوا يحرمون أنفسهم، ولا يحرمون المهاجرين شيئاً أبداً على حداثة عهدهم بالإسلام، حتى صارت مواقفهم مثلاً في التاريخ يُضرب في التآزر والمساعدة والتضحية والخلق الرفيع.. حتى صرنا نجد ذلك واضحاً بيّناً مجسداً فيما نقرأ ما قاله المهاجرون لرسول الله صلى الله عليه وآله:

يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، كفونا المؤونة وأشركونا في المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله!

فقال صلى الله عليه وآله: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم».

أي فإن ثناءكم عليهم ودعاءكم لهم حصل منكم به نوع مكافأة!

فهم خالدون بين ثناء الله عليهم وثناء رسوله صلى الله عليه وآله وثناء المهاجرين، بل والصالحين والأحرار على مدى التاريخ...

لقد عرفت قبيلة الخزرج بكرمها، وإن كان الكرم من شيم العرب وطباعها، إلاّ أنَّ هذا لا يمنع التمايز بينهم والتفاضل، فكان كلٌّ من جدّ سعد وأبيه معروفاً بهاتين الصفتين الجميلتين الجود والكرم، وورثهما هو وولده؛ حتى ورد «لم يكن في الأوس والخزرج أربعة مطعمون متتالون في بيت واحد إلاّ قيس بن سعد بن عبادة بن دُليم... وقد كان مناديه ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار دُليم»، «وكان لهم أُطُم (حصن) ينادى عليه كلَّ

يوم: من أحب الشحم واللحم، فليأت أُطُمَ دُليم بن حارثة»، فمات دُليم، فنادى منادي عُبادة بمثل ذلك، ثمَّ مات عُبادة، فنادى سعد أو مناديه بمثل ذلك: من كان يريد شحماً ولحماً فليأت سعداً، وكذا ابنه قيس...

وسعدٌ هذا وصف عدد من المؤرخين مكانته الرفيعة؛ ومنهم الذهبي بقوله: السيد الكبير الشريف، أبو قيس الأنصاري الخزرجي المدني، النقيب، سيد الخزرج كان من أكابر أعيان الخزرج بل سيدهم، ونقيب بني ساعدة، له بمنزلة طيبة بين قومه وغيرهم، كما يأتينا.. فهو رجل ذو هيبة وزعامة وسيادة لقبيلته الخزرج؛ وكيف لا يكون كذلك؛ وقد أصبح الملك الشريف المطاع في قومه وحاضرته، له رئاسة وسيادة يعترف قومه له بها،... بل صار للأنصار خزرجها وأوسها مقدماً وجيهاً؟!

وهذا يدل على مكانة الرجل الاجتماعية، وقدراته القيادية، وقابلياته القتالية؛ حتى كان يقال له الكامل، فهو العارف الخبير الحكيم، يكتب العربيّة، ويحسن العلوم، ويُجيد الرّمي والفروسية ركني القتال، حتى عدّ واحداً ممن كان يركب الفرس الجسام فتخط إبهاماه في الأرض.. وتعلم كلَّ ذلك وهو صبيٌّ.

وورث عن أجداده ذلك السيف الذي سمّاه الرقراق، وقد ذكره في شعر له، دوّنه الجوهري بقوله:

الرقراق: سيف سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه، وهو القائل فيه:

فإن يكن الرقراق فلل حده	قراع الأعادى كابراً بعد كابر
توارثه الآباء من عهد جرهم	وقبل بنى صد بن عاد وجائر
فلست بمبتاع يد الدهر مثله	أعرضه أخرى الليالي الغوابر

فالرجل كان يجيد وسائل القتال ليومذاك، حتى أنه تميز بكونه يجيد الرمي إجادة تامة، تؤهله قوته وشجاعته وصلابته لئن يسجل مشاهد رائعة ومواقف كبيرة فيما خاضه من معارك؛ خاصة تلك التي وقعت بعد إسلامه نصرةً للدين الحنيف، وكان يحمل راية

الأنصار فيها بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله فيما راية المهاجرين كانت للإمام عليٍّ عليه السلام، فهاتان الرايتان كانت تجولان في ساحة المعركة، وحسبه بذلك فخراً..، ولم تشغله تلك الأمور التي يحتاجها الواقع الاجتماعي والقتالي يومذاك عن تعلم الكتابة، التي نفعته فيما بعد كثيراً بعد إسلامه؛ حيث راح يؤلف كتاباً ذكر فيه بعض ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله كما ذكر هذا الطبراني في معجمه الكبير..[1]

من مواقفه :

اخترتُ بعضاً مما يدلُّ على مكانته الاجتماعية في قومه وفي عموم الناس، وما حظي به من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وما يثبت حكمته وسخاءه، وإعانته لإخوانه، وقضاء حوائجهم، وسداد ديونهم، ودرءَ مجاعتهم، وعتق آخرين... لقد سخّر أمواله لخدمة المهاجرين المسلمين ولم يمتنع عن شيء يُريحهم ويُسرهم، ومن ذلك كان الرجل من الأنصار ينطلق إلى داره بالواحد من المهاجرين، أو بالاثنين، أو بالثلاثة. وكان سعد بن عبادة ينطلق بالثمانين من أهل الصّفة، أو أنه كان يرجع كلّ ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم..

ولهذا كان دعاؤه: «اللّهمّ هب لي مجداً، لا مجد إلاّ بفعال، ولا فعال إلاّ بمال، اللّهمّ إنه لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه»!

حتى عدّوا جوده لا فقط الأوسع من أي شهرة، بل آية من آيات إيمانه، ولطالما سأل ربَّه المزيد من الرزق، فكان يقول في دعائه: «اللهم هب لي حمداً ومجداً، اللهم إنه لايصلحني القليل، ولا أصلح عليه، اللهم ارزقني مالاً، فلا تصلح الفعال إلاّ بالمال..».

---

١. أنظر في هذا كله الإصابة في تمييزالصحابة ٣١٨٠؛ والاستيعاب ٢: ٣٣؛ وأسد الغابة ٢: ٢٨٣؛ وسير أعلام النبلاء، للذهبي١ : ٢٧٠رقم ٥٥؛ المعجم الكبير والمحبر : ٢٣٣؛ وانظر تاج العروس، للجوهري ٢٥: ٣٥٨. رقق..

أمثلة من مواقفه الكريمة السخية :

هداياه لرسول الله ﷺ: لقد كان طيباً جدًّا مع رسول الله ﷺ طيبته هذه دليل إيمانه به وبرسالته، وحبّه له وإخلاصه له.. فكان رضوان الله عليه لا يتأخر عن طعام أو هدية، وقد تعددت هداياه التي يُقدمها بين يدي رسول الله ﷺ، وكان منها:

جَفنة سعد تدور مع النبيّ ﷺ في بيوت أزواجه، ولا يغبُّها كلَّ ليلة، كانت مرّةً بلحم، ومرّةً بسمن، ومرّةً بلبن، أو بخل وزيت يبعث بها إلى النبيِّ، كلما دار دارت معه الجفنة (أي القصعة) في بيوت أزواجه!

وتارةً يهدي له سيفه الذي يقال له: العضب. وأخرى يهدي له درعه ذات الفضول حين مسيره إلى معركة بدر، وثالثة يهدي إليه اللقائح من الإبل!

لقد ذكروا أنَّ هذا الصحابي حظي ببركات وفضائل من قبل رسول الله ﷺ فقد رُوي من حديث جابر، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جزى الله عنّا الأنصار خيراً لا سيّما عبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة». ومن حديث قيس بن سعد أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اللَّهمّ اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة».

وأنّ سعد بن عبادة دعا النبيّ ﷺ فأتاه بتمر وكِسَر فأكل، ثم أتاه بقَدَح من لبن فشرب، فقال: «أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وصلّت عليكم الملائكة، اللهمّ إجعل صلواتك على آل سعد بن عبادة».

لم يكن هذا حبًّا من طرف سعد فقط، كان حبًّا متبادلاً بينه وبين رسول الله ﷺ جعل رسول الله ﷺ يزور سعداً في منزله كلما ألمت به علّةٌ أو شكى من مرض أو شيء غيره، فعن قيس بن سعد بن عبادة أنه قال: أَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فوضعنا له غُسلاً فاغتسل. ثم أتيناه بملحفةٍ ورسيَةٍ فاشتَمل بها. فكأني أنظُرُ إلى أثر الْوَرْسِ عَلَى عُكَنه.

ولطالما كان سعد شديد الرغبة لدعاء رسول الله ﷺ وتسليمه، فكان ﷺ يقول: «السلام عليكم ورحمة الله»، ثمَّ يرفع يديه قائلاً: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة»!

واستأذن النبيّ صلى الله عليه وآله على سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال: «السلام عليكم ورحمة الله».

فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يُسمع النبيّ صلى الله عليه وآله ـ حتى سلم ثلاثاً ـ و ردّ عليه سعد ثلاثاً ولم يُسمعه!

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «قضينا ما علينا» ورجع.فاتّبعه سعد، فقال: يا رسول الله ـ بأبي أنت وأمي ـ ما سلمتَ تسليمة إلاّ وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرَّب إليه زيتاً فأكل النبي صلى الله عليه وآله فلما فرغ قال:

«أكل طعامكم الأبرار، وصلَّت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون».

وقفة :

وهنا لا بدّ أن أشير إلى أنَّ موقف رسول الله صلى الله عليه وآله من سعد لم يغفل عنه بعضٌ فثقل عليهم تحمله، فدفعهم إلى مناوأة سعد في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد رحيله صلى الله عليه وآله وبالذات في السقيفة وبعدها. ومن ذلك أنه كان مناوئاً للصحابي الجليل سعد بن معاذ؛ بما نسبوه له من موقف غضب وحمية كما سمّوه، حين قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قضيّة الإفك[1] وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمتُ على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية،

---

١. انظر الآيات ١١ـ٢٠ من سورة النور .

فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

وهنا أقول:

أولاً: إنَّ حادثة الإفك ذكرتها سورة النور، التي أُنزلت بعد غزوة بني المصطلق المسماة بغزوة: المريسيع، التي وقعت على الأشهر سنة خمس أو سنة ست، وإن قيل: وقعت سنة أربع في نفس سنة الخندق.

ثانياً: وسعد بن معاذ مات متأثراً بجراحه بعد غزوة الخندق سنة أربع.

ثالثاً: لا أظنُّ سعد بن عبادة يقف هذا الموقف من سعد بن معاذ؛ فكلاهما زعيما أهل المدينة.. سعد بن معاذ زعيم الأوس.. وسعد بن عبادة زعيم الخزرج. وقد أسلما سويةً، وشهدا بيعة العقبة، وراحا يعيشان جنباً إلى جنبٍ بجوار الرسول صلى الله عليه وآله يستفيدان منه، ويطيعان أوامره، ويتبعان إرشاده، ولم يذكر لنا التاريخ أنَّ سعد بن معاذ طمع في الراية التي كان يحملها سعد بن عبادة نيابةً لا عن الخزرج بل عن الخزرج والأوس قبيلة سعد بن معاذ، فالراية تشكل أمراً مهماً جدًّا في ذلك العصر؛ تريده الأنفس، وتصبو إليه الأعين، ومع هذا لم تنازعه نفسه، فيطلبها سعد بن معاذ له. والشيء الجميل أنه ما يذكر سعد بن معاذ حتى يذكر معه سعد بن عبادة، وكلٌّ منهما يعرف إيمان الآخر وإخلاصه لرسول الله صلى الله عليه وآله فكيف يصف ابن عبادة ابن معاذ بالكذب كما في خبر آخر: فقال لسعد: كذبت لعمر الله لاتقتله ولا تقدر على قتله.

رابعاً: وموقف سعد بن عبادة هذا، قد يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله خاصة والموقف بحضرته وتحت سمعه وبصره، وسيرة ابن عبادة إذا ما نُظر إليها وبالذات مع رسول الله صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يصدر منه هذا الكلام فيؤذي الرسول صلى الله عليه وآله بل ويزيده ألماً على ألمه، ويضاعف أذاه بسبب

حديث الإفك وآثاره... إضافةً إلى أنه كلام قد يتضمن دفاعاً عمن طعن بعرض رسول الله صلى الله عليه وآله.

خامساً: ولأن قول سعد بن معاذ ليست فيه إثارة لأحد، بل هو قول مهذب، فهو زعيم الأوس، ولهذا تبنى عقوبة المفتري (إن كان من الأوس ضربنا عنقه) وترك أمر الخزرج لرسول الله صلى الله عليه وآله فهو وليُّ الأمر، فقال: (وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك) فهو يحترم إخوانه كما عبر عن الخزرج، وترك الأمر لرسول الله صلى الله عليه وآله ولحكمه، الذي لا يرفضه مؤمن أو يتلكأ في تنفيذه فضلاً عن أن يكون سعد بن عبادة المعروف بإخلاصه، وأنه صاحب راية الرسول صلى الله عليه وآله في مواقعه...

سادساً: وبعد أن يذكر الذهبي الحديث؛ قالت عائشة: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال: كلا والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك.

يقول: يعني يردُّ على سعد بن معاذ سيد الأوس. ثمَّ يقول: وهذا مشكل؛ فإنَّ ابن معاذ كان قد مات.

وهذا الإشكال دفع من هو قبل الذهبي حين ذكره، ولكنه أصلح خلله بأن جعل أسيد بن خضير بدل سعد بن معاذ، وأبقوا سعد بن عبادة على ما ورد في الحديث دون ردٍّ أو دفاع عنه، وأن ما نسب إليه من عمل لا يناسب مواقفه الجليلة منذ إسلامه..

فهذا ابن حزم يقول: هذا عندنا وهمٌ؛ لأن سعد بن معاذ مات اثر غزوة بني قريظة بلا شك، وبنو قريظة كان في آخر ذي القعدة من سنة أربع فبين الغزوتين نحو من سنتين، والوهم لم يعر منه أحد من البشر.

وقال ابن العربي: ذكر سعد بن معاذ هنا وهم اتفق فيه الرواة. وقال ابن عمر: هو وهم وخطأ، وتبعه على ذلك جماعة.

وقال القاضي عياض: قال بعض شيوخنا ذكر سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي هذا وهم؛ الأشبه أنه غيره؛ ولهذا لم يذكره ابن إسحاق في السير، وإنما قال: إنّ المتكلم أولاً وآخراً أسيد بن

حضير. وقال القاضي: هذا مشكل؛ لأن هذه القصة كانت في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق سنة ست وسعد بن معاذ مات في أثر غزاة الخندق من الرمية التي أصابته وذلك في سنة أربع؛ ولهذا قيل إن ذكره وهم والأشبه أنه غيره. وقال القاضي في الجواب: إن موسى بن عقبة ذكر أن المريسيع كانت سنة أربع وهي سنة الخندق فيحتمل أن المريسيع وحديث الإفك كانا في سنة أربع قبل الخندق. قلت: هذا يبين صحة ما ذكره البخاري من أنه سعد بن معاذ وهو الذي في الصحيحين..

ومن وجهة نظر أخرى، فإن ما وقع بين هؤلاء الصحابة ـ إن صحّ ـ وهم يُعدّون من أجلائهم: سعد بن معاذ ومعه ابن عمّه أُسيد بن حُضير ضدَّ سعد بن عبادة من نزاع بحضرته ﷺ لدليل واضح على أنّهم مازالوا في درجة واطئة من الإيمان، ولم يبلغوا بعد ما يقيهم مثل هذا النزاع واتهام بعضه بعضاً بالنفاق والكذب، فكيف تمنح لهم تلك القداسة والعدالة، رغم فعالهم هذه وهناك العديد غيرها، ومنه ما حدث في مؤتمر السقيفة الذي يأتينا..؟

والذي أراه مناسباً وحتى ينجو الجميع من الاستبسال في الدفاع هو أننا نقنع أنفسنا وأجيالنا بأن جيل الصحابة وكذا التابعين هم بشر يُخطئ ويُصيب، وفيهم صالح وآخر طالح، وفيهم عادل وآخر فاسق، ومنهم من كان في مرحلة من عمره مستقيماً وفي أخرى غير ذلك، فهم معرضون لتقلبات القلوب وتبدل الأفكار وتغيّر السير، وبالتالي فهم ليسوا فوق النقد، الذي يؤشر على من كان منهم صالحاً وعادلاً؛ ومن كان منهم غير ذلك.. فعلينا أن ننتصر للسيرة الحسنة دون السيئة، وننجو بأنفسنا من الدفاع عن الظالم مهما كان دون المظلوم أي كان..

هذا ولكثرة ما وقع منهم يخشى الذهبي ـ كما يبدو ـ من فتح باب النقد، وكما يسميه علم الرجال باب (الجرح والتعديل) حيث يقول:

«لو فتحنا هذا الباب على نفوسنا لدخل فيه عدّة من الصحابة والتابعين والأئمّة، فبعض الصحابة كفّر بعضهم بعضاً بتأويل ما...».[١]

إنّه لرجلٌ غيورٌ!

وقبل أن نغادر سورة النور، وفيها قصة الإفك، نقف عند إضافةٍ سبقت آيات الإفك، تتعلّق بقذف المحصنات وتوجيه سهام الاتهام لهن دون برهان أكيد، ونتوفّر فيها على صفة من صفات هذا الصحابي، فقد كان معروفاً بين قومه بتطرف صفة الغيرة عنده حتى اشتهر بها: (إنه لرجلٌ غيورٌ) نجد صفته هذه جليّةً حينما نزلت الآيات ٤ ـ١٠ من سورة النور، وبالذات الآية: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾.[٢]

ولعلّها جاءت ـ والله أعلم بمراده ـ لصيانة الأسرة، نواة المجتمع الصالح، مما قد يُطيح بها، وبطهارتها ونقائها المطلوب، من أن يمسّها لسان قاذف، فيهدر كرامةَ محصنة هي أساس بنائها ونشأة أبنائها وأجيالها، فيصيبها الأذى وينتابها الألم والقلق والاضطراب..، ولمنع ذوي النفوس المريضة، وأصحاب الأهواء، الذين همّهم الأكبر إتهام الآخرين؛ وبالتالي إفساد أي علاقة طيبة لا فقط تلك التي تسود الأسرة الصغيرة بل تسود الجماعة الصالحة، وأمن بيوتها وسلامة أعضائها... فكانت هذه الآية بما تحمله من عقوبات لمن لم يأت بأربعة شهداء عدول يرون ما رمى به تلك المحصنة، وقد تكون بريئة؛ زجراً شديداً وخطيراً لنفوس قد تريد التلاعب بشرف الآخرين، وحتى يفكر أو يحسب كلُّ من يريد ذلك ألف مرة قبل الإقدام على قذف أو اتهام كهذا، يضرُّ الآخرين ضرراً فادحاً وخطيراً، وحتى لا تشيع

---

١. صحيح البخاري ٥: ١٥١ـ١٥٢؛ وسير أعلام النبلاء: سعد بن عبادة؛ دلائل النبوة، للبيهقي محققاً٤: ٦٩؛ وسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري: حادثة الإفك؛ وانظر معرفة الرواة، للذهبي : ٤٥ .

٢. سورة النور : ٤ .

الفاحشة بين المؤمنين، وتنتهي الثقة والطمأنينة داخل الأسر، وتتقوّض العلاقات الطيبة في المجتمع، وتستبدل بالتباغض والتنازع، ولقلع كل ذلك وغيره من الساحة جاء شرط الأربعة شهداء، وقد يكون أمراً عسيراً توفره، وسنّت لمن لم يأتِ بالشهداء ثمانين جلدةً حدًّا له، ولاتقبل لهذا القاذف شهادة على التأبيد، وهو فاسق، وفي الاستثناء الوارد في الآية الخامسة كلام بينهم في محله...، جميع ذلك من أجل الحيلولة دون إشاعة الفاحشة بين الناس، وإنهاء للقذف و للشرِّ والرذيلة الذي تستلذ بها بعض النفوس السيئة...، فما إن نزلت هذه الآية إذ بسعد بن عبادة ـ وكأنه يحكي عما يجول في نفوس كلِّ شريف وعزيز وغيور ينتهك عرضه ـ يقول لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله! أرأيت إن رأى رجلٌ مع امرأته رجلاً فقتله؛ تقتلونه، وإن أخبر بما رأى جُلد ثمانين، أفلا يضربه بالسيف؟!!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كفى بالسيف شاه. ـ أراد أن يقول: شاهداً، ثم أمسك وقال: ـ لولا أن يتابع فيه السكران والغيران». وفي رواية عن ابن عباس، قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع وقد يفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته، ويذهب. وإن قلت ما رأيت فإن في ظهري لثمانين جلدة.

فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «يا معشر الأنصار! ما تسمعون إلى ما قال سيدكم»؟ فقالوا: لا تلمه، فإنه رجل غيور، ما تزوج امرأة قطّ إلاّ بكراً، ولا طلق امرأة له فاجترى رجل منا أن يتزوجها!

فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله! بأبي أنت وأمّي، والله إني لأعرف إنها من الله، وإنها حقٌّ، ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك! فقال: «فإن الله يأبى إلاّ ذاك».

فقال: صدق الله ورسوله! فلم يلبثوا إلاّ يسيراً حتى جاء ابن عمٍّ له يقال له هلال بن أمية من حديقة له، قد رأى رجلاً مع امرأته. فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إني جئت أهلي عشاءً، فوجدت معها رجلاً رأيته بعيني، وسمعته بأذني.

فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله حتى رأى الكراهة في وجهه!

فقال هلال: إني لأرى الكراهة في وجهك، والله يعلم أني لصادق، وأني لأرجو أن يجعل الله فرجاً. فهمَّ رسول الله بضربه!

وفي خبر عن ابن عباس أيضاً:... فقال سعد بن عبادة: الآن يضرب رسولُ الله صلى الله عليه وآله هلالَ بن أمية، وتبطل شهادته في المسلمين!

واجتمعت الأنصار، وقالوا: ابتلينا بما قال سعد، أيجلد هلال، وتبطل شهادته؟! وهلال يقول: والله، إني لأرجو أن يجعل الله لي مخرجاً! يارسول الله، إني قد أرى ما قد اشتدَّ عليك مما جئتُك به، والله إني لصادق!

فوالله إنَّ رسول الله يريد ضربه إذ نزل عليه الوحي، وكان إذا نزل عليه الوحي، عرفوا ذلك في تربُّد جلده، فأمسكوا حتى فرغ من الوحي، فنزلت: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ...**﴾.[١]

فقال صلى الله عليه وآله: «أبشر يا هلال، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً»! فقال هلال: قد كنت أرجو ذاك من ربّي! فقال صلى الله عليه وآله: «أرسلوا إليها، فجاءت فلاعن بينهما...».[٢]

بارك الله على سعد!

لقد حظي هذا الأنصاري بدعاء رسول الله صلى الله عليه وآله له؛ وذلك حين نزول بعض الوفود عليه، وقد جاءت لتبايع رسول الله صلى الله عليه وآله وتعلن إسلامها بين يديه المباركتين، فيُكرمها سعدٌ أيّما إكرام، قبل أن ينطلق برفقتها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويشهد إسلامها، ففي السنة العاشرة، لما قدم فروة بن مسيك المرادي، وكان رجلاً له شرف، على رسول الله صلى الله عليه وآله مفارقاً لكندة تابعاً للنبيِّ صلى الله عليه وآله أنزله سعد بن عبادة عليه، ثمَّ غدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو جالس في المسجد، فسلّم عليه، ثمَّ قال: يا رسول الله أنا لمن ورائي من قومي!

---

١. سورة النور ٦ ـ ١٠، آيات الملاعنة !

٢. انظر تفسير مجمع البيان للطبرسي؛ أسباب النزول للواحدي وغيرهما : الآية .

قالصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ: «أين نزلتَ»؟

قال: على سعد بن عبادة.

قالصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ: «بارك الله على سعد»!

من سيد هذه البحرة من بني عمرو بن عامر؟!

سؤال أطلقه عمرو بن معدي كرب الزبيدي؛ حين قدم في عشرة من زُبيد المدينةَ المنورةَ، وهو آخذ بزمام راحلته:

فقيل له جواباً عن سؤاله: سعد بن عُبادة!

فأقبل يقود راحلته حتى أناخ ببابه، فخرج إليه سعد، فرحَّب به، وأمر برحله، فحُطَّ، وأكرمه وحباه، ثم راح به إلى رسول اللهصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ هو ومن معه فأسلم وأقام أياماً...

يبخلان عليَّ ابني!

كان قيس بن سعد يحمل راية الأنصار مع النبيِّصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ. قيل: إنه كان في سرية فيها أبوبكر و عمر، فكان يستدين ويطعم الناس.

فقال أبوبكر و عمر: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه! فمشيا في الناس.

فلما سمع سعد، قام خلف النبيِّصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ فقال: من يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب؟! يُبخلان عليَّ ابني!

أما إنه في بيت جود!

قالوا: بعث رسول اللهصَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ أبا عبيدة في سرية فيها المهاجرون والأنصار، وهم ثلاثمائة، إلى ساحل البحر إلى حيّ من جهينة، فأصابهم جوع شديد.

فأمر أبو عبيدة بالزاد، فجمع حتى كانوا يقتسمون التمرة.

فقال قيس بن سعد: من يشتري مني تمراً بجزر، يوفيني الجزر هاهنا وأوفيه التمر بالمدينة.

فجعل عمر يقول: يا عجباً لهذا الغلام، يدين في مال غيره.

فوجد رجلاً من جهينة، فساومه، فقال: ما أعرفك! قال: أنا قيس بن سعد بن عبادة ابن دليم!

فقال: ما أعرفني بنسبك، أما إنّ بيني وبين سعد خلة؛ سيد أهل يثرب فابتاع منه خمس جزائر، كلّ جزور بوسق من تمر، وأشهد له نفراً. فقال عمر: لا أشهد، هذا يدين ولا مال له، إنما المال لأبيه.

فقال الجهني: والله ما كان سعد ليخني بابنه في شقة من تمر، وأرى وجهاً حسناً، فنحرها لهم في ثلاثة مواطن. فلمّا كان في اليوم الرابع، نهاه أميره، وقال: تريد أن تخرب ذمتك ولا مال لك؟!

فبلغ سعداً ما أصاب القوم من المجاعة!

فقال: إن يك قيس كما أعرف، فسوف ينحر للقوم!

فلما قدم، قصّ على أبيه، وكيف منعوه آخر شيء من النحر!

فكتب له أربع حوائط (أي بساتين) أدنى حائط منها يجد خمسين وسقاً.

فقيل: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لما بلغه، قال:

«أما إنه في بيت جود»!!

موقفه مع سلمان الفارسي:

ويقول سلمان الفارسي لما أراد أن يعتق نفسه من سيده: وكاتبت صاحبي القرظي عَلَى مائة وستين فسيلة وأربعين أوقية من ذهب.

وأتيت النّبيّ صلى الله عليه وآله فأعانني سعد بن عبادة بستين وديّة (وعند ابن هشام: حلّة. كانت المكاتبة على ثلاث مائة نخلة، والودى صغار الغسيل) وأعانني الأنصار بالمائة الباقية. وأتى النّبيّ صلى الله عليه وآله ذهب من معدن بني سُلَيْم، فأعطاني منه شيئاً استقللته، وقلت: لا يبلغ (تبلغ) أربعين أوقية. فوضعه فِي فمه، وقال: ادفعه إلى صاحبك. فوزن، فإذا هُوَ تمام ما أريد.

فكان سلمان يقول:

أنا سلمان بن الإسلام.

تمرُ المدينة :

قال أبو عمر: وإليهما أرسل رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يوم الخندق يشاورهما فيما أراد أن يعطيه يومئذ عيينة بن حصن من تمر المدينة، وذلك أنه أراد أن يعطيه يومئذ ثلث أثمار المدينة، لينصرف بمن معه من غطفان، ويخذل الأحزاب، فأبى عيينة إلاّ أن يأخذ نصف التمر، فأرسل رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة دون سائر الأنصار، لأنهما كانا سيدي قومهما، كان سعد بن معاذ سيداً لأوس، وسعد بن عبادة سيداً لخزرج، فشاورهما في ذلك، فقالا: يا رسول الله، إن كنت أمرت بشيء فافعله وامض له، وإن كان غير ذلك فو الله لا نعطيهم إلاّ السيف. فقال رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «لم أومر بشيء، ولو أمرت بشيء ما شاورتكما، وإنما هو رأي أعرضه عليكما».

فقالا: والله يا رسول الله ما طمعوا بذلك منا قط في الجاهلية، فكيف اليوم؟وقد هدانا الله بك وأكرمنا وأعزنا. والله لا نعطيهم إلاّ السيف.

فسر بذلك رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ ودعا لهما، وقال لعيينة بن حصن ومن معه: «ارجعوا، فليس بيننا وبينكم إلاّ السيف، ورفع بها صوته»![1]

رايتان مباركتان :

وإذا ما عرفنا ما تمثله الراية يومذاك من رمز عظيم لكرامة ووجود أتباعها، فهي عنوان بقائهم وافتخارهم ووحدة كلمتهم، من أجلها يتفانى الجميع لتبقى عاليةً شامخةً خفاقةً، لا يصيبها أذًى ولا يحول بينها وبينهم عدو، يلوذون بها، ويلتفون حولها، وهي تجول بيد قوية في ساحة الوغى، إن انتكست هزموا، وإن شمخت انتصروا، فهي علامة النصر أو الهزيمة، وهي رمز الثبات والصمود إن بقيت؛ وإلاّ فهي دليل الاضطراب والفرار..، إذا عرفنا

١. انظر الطبقات، لابن سعد ٥: ٣٨٣؛ وتاريخ مدينة دمشق ٤٦ : ٣٧٢ عمرو؛ وسير أعلام النبلاء٣ : ١٠٥؛ أنساب الأشراف، للبلاذري١ : ٢٨٧؛ الاستيعاب رقم ٩٤٤ .

هذا، نعرف أن حمل الراية يعدُّ مسؤولية كبيرة، وحاملها يؤدي دوراً خطيراً، وله منزلة رفيعة تشرئب لها الأعناق، وتتمناها النفوس، وتصبو لها القلوب...

ولطالما تعاضدت هاتان الرايتان في مواقع عديدة خلال عشرة أعوام؛ فترة بقاء رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة بعد هجرته إليها من مكة المكرمة، قبل أن يرحل إلى ربِّه، راية المهاجرين بيد الإمام عليٍّ عليه السلام، وراية الأنصار بخزرجهم وأوسهم بيد الصحابي الجليل سعد بن عبادة.

يقول ابن عباس: كان لرسول الله صلى الله عليه وآله في المواطن كلها رايتان.. مع علي بن أبي طالب عليه السلام راية المهاجرين.. ومع سعد بن عبادة، راية الأنصار..!

ففي شهر صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه صلى الله عليه وآله المدينة؛ خرج صلى الله عليه وآله غازياً الأبواء، استعمل سعد بن عبادة.

وقعة بدر الكبرى :

لم تتفق الأخبار والأقوال على مشاركة سعد في معركة بدر الكبرى:

بعضها يذكر: وكان قد تهيّأ للخروج إلى بدر، ويأتي دورَ الأنصار يحضُّهم على الخروج، فنُهش (لعلَّ المقصود: نهشته حيّةٌ: لسعته. أو نهشه كلبٌ: عضَّه وخدشه، هذا من اللغة).

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لئن كان سعد لم يشهدها، لقد كان عليها حريصاً»!

ولم يذكره كلٌّ من ابن عقبة وابن إسحاق في البدريين.

فيما بعضها الآخر يذكر أنَّ الطبري روى أنَّ صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة. وكذا عدَّه صاحب المحبر والجمهرة في البدريين. وأيضاً ذكره فيهم الواقدي والمدائني وابن الكلبي، وروى الذهبي وابن

حجر شهوده بدراً عن البخاري، كما روى عن عروة وابن مندة ذلك.[١]

معركة أُحد :

سجل هذا الصحابي وبرفقته كلٌّ من سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير موقفاً رائعاً قبيل معركة أُحد وبعيدها، وذلك حين باتوا بسلاحهم ليلتهم؛ ليلة الجمعة، بباب رسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد، وحرست المدينة حتى أصبحوا...، كان هذا الموقف منهم قبيل معركة أُحد حينما وصل المشركون وعسكروا قريباً من المدينة..

وما إن توجه الرسول صلى الله عليه وآله نحو المشركين حتى كان كلٌّ من سعد بن عبادة وسعد بن معاذ يعدوان أمامه، يقول الخبر:

عن الواقدي: وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلون من شوال، وكانت الوقعة يوم السبت لسبع خلون من شوال، وباتت وجوه الأوس والخزرج سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، في عدة منهم ليلة الجمعة، عليهم السلاح في المسجد بباب النبي صلى الله عليه وآله خوفاً من تبييت المشركين، وحرست المدينة تلك الليلة، حتى أصبحوا...، وطلب جمع من رسول الله الخروج إلى عدوهم، ورغبوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدو، وقالوا: اخرج بنا الى عدونا ـ وكان منهم حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة، والنعمان ابن مالك بن ثعلبة، وغيرهم من الأوس والخزرج ـ إنا نخشى يا رسول الله، أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم؛ جبنا عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلثمائة رجل، فظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، وكنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه ـ ورسول الله صلى الله عليه وآله لما رأى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم، يتساومون كأنهم الفحول... فعقد ثلاثة ألوية،

١. الطبقات الكبرى، لابن سعد ٩١ـ١١٠؛ تاريخ الطبري ٢: ٤٣١؛ المحبر، لابن حبيب : ٢٧٧؛ جمهرة أنساب العرب : ٣٦٥؛ سير أعلام النبلاء ١: ١٩٦ـ١٩٧؛ الإصابة في معرفة الصحابة ٢: ٢١ .

فدفع لواء الاوس إلى أسيد بن حضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن الجموح ويقال إلى سعد بن عبادة ودفع لواء المهاجرين إلى على بن أبى طالب عليه السلام ـ ويقال إلى مصعب بن عمير، ثمَّ دعا بفرسه فركبه، وتقلد القوس وأخذ بيده قناة ـ زجّ الرمح يومئذ من شبه ـ والمسلمون متلبسون السلاح، قد أظهروا الدروع، فهم مائة دارع، فلما ركب صلى الله عليه وآله خرج السعدان أمامه يعدوان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، كلّ واحد منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله... وحظي بعض رهط سعد بن عبادة بالشهادة؛ كان منهم: عبد الله بن عمرو بن وهب، وضمرة الجهني من حلفائهم...

وبعد انصرافه من أحد بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أن المشركين قد عزموا أن يردوا إلى المدينة فينهبوها، فأحب أن يريهم قوة، فصلى الصبح يوم الأحد لثمان خلون من شوال، ومعه وجوه الأوس والخزرج، وكانوا باتوا تلك الليلة في بابه يحرسونه من البيات، فيهم سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، والحباب بن المنذر، وأوس بن خولي، وقتادة بن النعمان في عدة منهم. فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالاً أن ينادى في الناس، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلاّ من شهد القتال بالأمس، فخرج سعد بن معاذ راجعا إلى قومه يأمرهم بالمسير، والجراح في الناس فاشية، عامة بني عبد الأشهل جريح، بل كلّها، فجاء سعد بن معاذ فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يأمركم أن تطلبوا عدوكم. قال: يقول أسيد بن حضير ـ وبه سبع جراحات، وهو يريد أن يداويها ـ : سمعاً وطاعة لله ولرسوله! فأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء جراحه، ولحق برسول الله صلى الله عليه وآله. وجاء سعد بن عبادة قومه بنى ساعدة، فأمرهم بالمسير فلبسوا ولحقوا، وجاء أبو قتادة أهل خربا، وهم يداوون الجراح، فقال: هذا منادى رسول الله صلى الله عليه وآله يأمركم بطلب العدو، فوثبوا إلى سلاحهم، ولم يعرجوا على جراحاتهم فخرج من بنى سلمة أربعون جريحاً، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً، وبخراش بن الصمة عشر جراحات، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً، وبقطبة بن عامر بن خديج بيده تسع جراحات، حتى وافوا النبي صلى الله عليه وآله بقبر أبي عتبة، وعليهم السلاح وقد صفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله. فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية،

قال: اللهم ارحم بنى سلمة.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله خارج المدينة يرقب الموقف، وأرسل عليًّا عليه السلام في آثار القوم ينظر ما يصنعون وما يريدون، فرجع عليٌّ عليه السلام يُخبره بتوجه القوم إلى مكة، فانصرف النبيُّ صلى الله عليه وآله إلى المدينة.[1]

معركة الخندق :

وأيضاً سجل سعد بن عبادة فيها مواقف جليلة؛ فإضافة إلى كونه حامل لواء الأنصار وما فيه من مسؤولية ومهمة، فقد ذكروا له دوراً آخر في حديث الخندق حينما كان هناك نفرٌ من اليهود، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة ابن الربيع بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وآله خرجوا حتى قدموا مكة على قريش، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه قال: فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً... وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً**﴾.[2] فلما قالوا ذلك لقريش، سرهم ما قالوا، ونشطوا لما دعوهم له من حرب رسول الله صلى الله عليه وآله، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من اليهود، حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأنّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا فيه،

١. شرح نهج البلاغة ١٤ : ٢٢٣ ، ٢٢٦؛ مغازي الواقدي ٣٢٥ وما بعدها؛ سيرة ابن هشام ٣ : ١٠٠.
٢. سورة النساء : ٥١ .

فأجابوهم فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة ابن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة، ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان، فيمن تابعه من قومه من أشجع.

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة؛ فلمّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء، فرفعوا في الآطام، وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري، حتى أتى كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وآله على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب، أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: يا كعب افتح لي، قال: ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشؤوم، إني قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلاّ وفاءً وصدقاً؛ قال: ويحك افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إن أغلقت دوني إلاّ تخوفت على جشيشتك أن آكل معك منها، فأحفظ الرجل، ففتح له، فقال: يا كعب جئتك بعز الدهر، وببحر طم، جئتك بقريش على قاداتها وساداتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، فقال له كعب بن أسد: جئتني والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماءه، يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، فدعني ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلاّ صدقاً ووفاءً؛ فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على

أن أعطاهم عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر، وإلى المسلمين، بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، أحد بني الأشهل، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة بن دليم أخي بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج، وخوات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف، فقال:

انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فألحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: من رسول الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة، فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسلموا عليه، ثم قالوا: عَضَل والقارة: أي كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، حتى ظنّ المسلمون كلّ ظنّ، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، وحتى قال أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث: يا رسول الله إن بيوتنا لعورة من العدو، وذلك عن ملإ من رجال قومه، فأذن لنا فلنرجع إلى دارنا، وإنها خارجة من المدينة، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر، ولم يكن بين القوم حرب إلاّ الرمي بالنبل والحصار.

ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وقد اشتدّ الأمر، وعظم البلاء على المسلمين يوم الأحزاب بكثرة الأعداء وتحالفهم ضدَّه أن يخطو خطوة قد تفكك حلفهم هذا وتشتّت جمعهم، ويضعف الجيش القادم والمقدر بعشرة آلاف بقيادة أبي سفيان؛ أن يعطي لغطفان ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا إلى بلادهم، وبذلك لا يتبقى غير قريش، وهم أربعة آلاف فقط، ولا يزيدون عن المسلمين إلاّ بألف رجل، والمسلمون لهم دراية وخبرة بقتالهم ومقارعتهم. فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، وعرض عليهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بقومهما، وجرت المراوضة، فقالا: «تعطينا نصف تمر المدينة»، فأبى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر، وأحضرت الصحيفة والدواة. ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح.

فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يفعل ذلك؛ بعث إلى السعدين: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه.

فقالا: يا رسول الله أمراً تحبُّه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بدَّ لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا ؟ فقال صلى الله عليه وآله: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلاّ لأنني رأيتُ العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما.

فرفض السعدان ذلك، وقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلاّ قرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك، وبه، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم بيننا وبينهم! فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «أنت وذاك».

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا![١]

غزوة المريسيع :

وكانت راية الأنصار بيد سعد بن عبادة، حينما ندب رسول الله ﷺ الناس لمواجهة بني المصطلق من خزاعة حين دعاهم سيدهم الحارث بن أبي ضرار، واستجابوا له كما استجاب غيرهم من العرب لحرب رسول الله ﷺ وبعد أن أرسل ﷺ لهم بُريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فأتاهم ولقي الحارث وكلّمه، رجع إلى رسول الله ﷺ فأخره خبرهم. فخرج ﷺ والناس معه في يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان سنة ٥ هجرية، وانتهى إلى المريسيع.. وصفّ أصحابه، ودفع راية الأنصار إلى سعد بن عبادة.. ثمَّ أمر رسول الله ﷺ أصحابه، فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقتل عشرة منهم، وأُسر سائرهم.[٢]

غزوة الغابة :

وتسمى غزوة ذي قر، وقعت في السنة السادسة هجرية، وهي أول غزوة بعد الحديبية وقبل خيبر.

وكان سببها إغارة عيينة بن حصن الفزاري على إبل أو حوامل الإبل ذات اللبن النبيّ ﷺ بالغابة وقتل حارسها وخطف امرأة مع الإبل. فلما سمع النبيُّ ﷺ بذلك، خرج من المدينة إليهم، وانبرى عدد من المسلمين لمطاردة عصابة الخطف تلك حتى استطاعوا إدراكها، فأنقذوا المرأة وبعض الإبل..

يقول ابن سعد: ... غزوة رسول الله ﷺ الغابة وهي على بريد من المدينة طريق الشام في شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجره، قالوا: كانت لقاح رسول الله ﷺ وهي

١. السيرة النبوية، لابن هشام؛ وتاريخ الطبري .

٢. السيرة النبوية؛ طبقات ابن سعد .

عشرون لقحة ترعى بالغابة كان أبوذر فيها فأغار عليهم عيينة بن حصن ليلة الأربعـاء في أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا بن أبي ذر، وجاء الصريخ، فنادى الفزع الفزع!

فنودي يا خيل الله اركبي، وكان أول ما نودي بها وركب رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج غداة الأربعاء في الحديد مقنعاً، فوقف فكان أول من أقبل إليه المقداد بـن عمـرو وعليـه الـدرع والمغفر شاهراً سيفه، فعقد له رسول الله صلى الله عليه وآله لواء في رمحه، وقال: امض حتى تلحقك الخيول إنا على أثرك.

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وخلف سعد بن عبـادة في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة...

فجاءت الامداد فلم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بذي قرد فاستنقذوا عشر لقائح، وأفلت القوم بما بقي، وهي عشر وصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بذي قرد صلاة الخوف، وأقام به يوماً وليلة يتحسس الخبر، وقسم كل مائة من أصحابه جزوراً ينحرونها، وكانوا خمسمائة ويقال سبعمائة، وبعث إليه سعد بـن عبـادة بأحمال تمر وبعشر جزائر فوافت رسول الله صلى الله عليه وآله بذي قرد...

وكذا في خيبر حين فرق رسول الله صلى الله عليه وآله الرايات وكانت راية رسـول الله صلى الله عليه وآله دفعهـا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، ودفع راية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سـعد بـن عبادة. وكان شعارهم: يا منصور أمت..[١]

ما يُجير أحدٌ على رسول الله!

كلمة قالها سعد لأبي سفيان، الذي قدم المدينة، سنة ٨ هجرية، بعد أن أخلَّ مشركو قريش ببنود صلح الحديبية، حين قتلوا عدداً من مسلمي قبيلة خُزاعـة، وكـان غرضـه أن

---

١. الطبقات الكبرى، لابن سعد٢ : ٨٠ ـ ٨١ ، ١٠٦؛ الواقدي في المغازي١ :٤٠٧؛ السيرة الحلبية ٣ :٣٥؛ وتاريخ الإسلام، للذهبي ٢ : ٤٤٢ .

يُجدد عهد الصلح الذي خرقه أتباعه، فراح يستجير بأهل بيت رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ وببعض الصحابة وحتى بإبنته أمّ حبيبة زوجة رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فلم يجره أحدٌ؛ وأتى سعد بن عبادة، وهو واحد ممن استجارهم، فكلّمه في ذلك:

وقال يا أبا ثابت، قد عرفت الذي كان بيني وبينك، وإني كنت لك في حرمنا جاراً، وكنت لي بيثرب مثل ذلك، وأنت سيد هذه المَدَرة، فأجر بين الناس، وزدني في المدة!

فقال سعد: جواري جوارُ رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، ما يُجير أحدٌ على رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ!

فلما انطلق أبو سفيان إلى مكة، وقد طالت غيبته عن قريش وأبطأ، فاتهموه، وقالوا: نراه قد صبا واتبع محمداً سرّاً، وكتم إسلامه، فلما دخل على هند ليلاً قالت: قد احتبست حتى اتهمك قومك، فإن كنت جئتهم بنجح فأنت الرجل. وقد كان دنا منها ليغشاها، فأخبرها الخبر، وقال: لم أجد إلاّ ما قال لي عليٌّ، فضربت برجلها في صدره، وقالت: قبحت من رسول قوم!

وقد قال له الإمام عليٌّ عليه السلام حين جاءه قائلاً: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد انسدت عليّ فانصحني.

قال: والله لا أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم وأجر بين الناس ثم الحق بأرضك.

قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟

قال: والله ما أظنه، ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني أجرتُ بين الناس...

وله موقف آخر :

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: لما بلغ رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ إقبال أبي سفيان قال: أشيروا عليَّ.

فقام أبو بكر فقال له: اجلس.

ثم قام عمر فقال له: اجلس.

فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ فلو أمرتنا أن نخيضها لبحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا ذلك.[١]

فتح مكة :

وكانت راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الفتح بيد سعد بن عبادة، فلما مرَّ بها على أبي سفيان ـ وكان قد أسلم ـ ونظر إليه؛ قال: اليوم يوم الملحمة. اليوم تستحل المحرمة. اليوم أذل الله قريشاً! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله في كتيبة الأنصار، حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه: يا رسول الله، أمرت بقتل قومك؟ فإنه زعم سعد ومن معه حين مرَّ بنا أنه قاتلنا. وقال: اليوم يوم الملحمة. اليوم تستحل المحرمة، اليوم أذلَّ الله قريشاً. وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبرّ الناس وأرحمهم وأوصلهم. وقال عثمان، و عبدالرحمن بن عوف: يا رسول الله، والله ما نأمن من سعد أن تكون منه في قريش صولة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا؛ يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزَّ الله قريشاً.

وقال ضرار بن الخطاب الفهري يومئذ:

يا نبيّ الهدى إليك لجاحيّ قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القوم ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعدا يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء

١. السيرة الحلبية: فتح مكة؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٧: ٢٦٤؛ تهذيب الكمال ١٠ : ٢٨٠ .

خزرجي لو يستطيع مـن الغـيظ رمانا بالنسر والعواء
وغــر الصــدر لا يهـم بشــيء غير سفك الدما وسبي النساء
قد تلظى على البطـاح وجـاءت عنه هند بالسوءة السوآء
إذ تنــادى بــذل حــي قــريش وابن حرب بذا من الشهداء
فلــئن أقحــم اللــواء ونــادى يا حماة اللواء أهل اللواء
ثم ثابت إليه مـن بهـم الخـزرج والأوس أنجم الهيجاء
لتكـــونن بالبطـــاح قـــريش فقعة القاع في أكف الإماء
فانهينـــه فإنـــه أســـد الأســـد لدى الغاب والغ في الدماء
إنــه مطــرق يريــد لنــا الأمــر سكوتاً كالحية الصماء

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى سعد بن عبادة، فنزع اللواء من يده، وجعلـه بيـد قـيس ابنه، ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله أن اللواء لم يخرج عنه، إذ صار إلى ابنـه، وأبى سـعد أن يسـلم اللواء إلاّ بأمارة من رسول الله صلى الله عليه وآله فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله بعمامته، فعرفها سعد، فدفع اللواء إلى ابنه قيس.

وقد روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطى الراية الزبير، إذ نزعها من سعد. وفي قول: ذهب بها وغرزها بالحجون.

وروي أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمر علياً فأخذ الراية، فذهب بها حتى دخـل مكّـة،

فغرزها عند الركن.[١]

وفي يوم حنين، كان للخزرج لواء يحمله حباب بن المنذر، فيما يقال: إنّ هناك لـواءً آخر يحمله سعد بن عبادة.

ما أنا إلاّ من قومي!

هكذا هي كلمة تحمل صراحة هذا الصحابي، وتكشف عن سجيته الواضحة، وثقتـه العالية بنفسه، ينطق بالصدق دون غموض، وقد جاءت جواباً عن سؤال رسول الله صلى الله عليه وآله:

فأين أنت من ذلك يا سعد؟!

كان هذا يوم أن وزّع رسول الله صلى الله عليه وآله غنـائم غـزوتي حـنين والطـائف، وقـد غـنم المسلمون مغانم كثيرة، وصار صلى الله عليه وآله يتألف بها بعض الأقوام، لمـا أعطـى رسـول الله صلى الله عليه وآله مـا أعطى من تلك العطايا، في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شـيء، وجـد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم؟ حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقـد لقـي والله رسول الله صلى الله عليه وآله قومه!

فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إنَّ هـذا الحـي مـن الأنصـار قـد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء؛ الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

قال صلى الله عليه وآله: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟

قال: يا رسول الله، ما أنا إلاّ من قومي.قال: فاجمع لي قومك في هذه.

فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. فجاء رجال من المهـاجرين فتـركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هـذا الحـي

---

١. السيرة النبوية، لابن هشام ٤ : ٤٩؛ تـاريخ الطـبري٣ : ٥٦؛ الطبقـات الكـبرى، لابـن سـعد٢ : ٩٨؛ الاستيعاب ٢ : ٣٧؛ أُسد الغابة ٢ : ٢٨٤؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٧ : ٢٨٤ .

من الأنصار.

فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟

أ لم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟!

قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

ثم قال صلى الله عليه وآله: ألا تجيبونني يا معشرالأنصار؟

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. أو قالوا: بلى، الله ورسولـه أَمَنُّ وأَفْضَلُ.

قال صلى الله عليه وآله: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك!

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا. ووكلتكم إلى إسلامكم!

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكتُ شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً، وحظّاً. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وتفرقوا...[1]

أقوال فيه :

١. انظر السيرة النبوية، لابن هشام ٤ : ١٤١ـ١٤٢؛ وغيرها من المصادر .

وقبل الانتقال إلى الفصل الأخير من حياة هذا الصحابي، نعرض لبعض ما قاله فيه علماء الرجال وغيرهم:

سعد بن عبادة من الخزرج، وكان واحداً من النقباء الاثني عشر الذين اختارهم رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أمته بإشارة من جبرئيل، ذكره الصدوق في الخصال، أبواب الاثني عشر. و الرواية هي:

حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن محمد بن أبي عمير، وأحمد ابن محمد بن أبي نصر البزنطي، عن أبان بن عثمان الأحمر، عن جماعة مشيخة، قالوا:

اختار رسول الله صلى الله عليه وآله، من أمته اثني عشر نقيباً، أشار إليهم جبرئيل، وأمره باختيارهم، كعدة نقباء موسى عليه السلام: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، فمن الخزرج: أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حزام، والد جابر ابن عبد الله، ورافع بن مالك، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، ومن القوافل: عبادة ابن الصامت، ومعنى القوافل: الرجل من العرب كان إذا دخل يثرب يجيء إلى رجل من أشراف الخزرج فيقول: أجرني ما دمت بها من أن أظلم، فيقول: قوفل حيث شئت فأنت في جواري، فلا يتعرض له أحد.

ومن الأوس: أبو الهيثم بن التيهان، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة.

ومن المحتمل أنَّ الجماعة الذين روى عنهم أبان بن عثمان هم جماعة من العامة وهم يحي بن أبي كثير، وسعيد بن عبد العزيز، وسفيان بن عيينة وغيرهم؛ كما عن الاستيعاب لابن عبد البر، الذي قال: وكان رضي الله عنه عقبياً، نقيباً، سيّداً، جواداً...[١]

وقال الكشي، في ترجمة قيس بن سعد بن عبادة: ذكر يونس بن عبد الرحمان في

---

١. الخصال، الشيخ الصدوق : ٤٩١ .

بعض كتبه أنه كان لسعد بن عبادة ستة أولاد... وسعد لم يزل سيداً في الجاهلية والاسلام... وكان سعد يجير فيجار، وذلك لسؤدده ولم يزل هو وأبوه أصحاب إطعام في الجاهلية والاسلام!

وتخلف سعد عن عبادة عن بيعة أبي بكر، وخرج من المدينة ولم ينصرف إليها إلى أن مات بحوران، من أرض الشام لسنتين ونصف مضتا من خلافة عمر... وقيل: بل مات سعد بن عبادة في خلافة أبي بكر سنة إحدى عشرة، ولم يختلفوا أنه وجد ميتاً في مغتسله... ويقال: إنّ الجن قتلته!!

وروى ابن جريح عن عطاء، قال: سمعت الجن قالت في سعد بن عبادة تذكر البيتين.

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

فرميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده

وعن بعض الأنصار أنه أنشد في سبب قتل سعد وقال:

يقولون سعد شقت الجن بطنه * ألا ربما حققت أمرك [فعلك] بالغدر

وما ذنب سعد إنه بال قائماً * ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر

وقد أشار الشاعر إلى كذب ما لفقه أعداء سعد من أنه بال قائماً فقتلته الجنّ و لو صحّ ما قالوه لقتلت الجنّ كلّ يوم ألوفاً من الناس فلِمَ اختصَّ هذا بسعد!![1]

وقد وصفه الذهبي قائلاً: السيد الكبير، الشريف، أبو قيس الأنصاري، الخزرجي، الساعدي، المدني، النقيب، سيد الخزرج، وكان عقبياً، نقيباً، سيداً، جواداً. ولما قدم النبيصلى الله عليه وآله المدينة كان يبعث إليه كل يوم جفنة من ثريد اللحم، أو ثريد بلبن، أو غيره، فكانت جفنة

١. معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي ٩ : ٧٥ رقم: ٥٠٥٤، و٣: ٢٤٥ رقم: ١٢٤١ ترجمة أسعد بن زرارة. باختصار .

سعد تدور مع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيوت أزواجه.[١]

ومما قاله خالد محمد خالد:

ويبدو أن الشدّة كانت طابع هذه الشخصية القوية.. فهو شديد في الحق.. وشديد في تشبثه بما يرى لنفسه من حق.. واذا اقتنع بأمر نهض لاعلانه في صراحة لا تعرف المداراة، وتصميم لا يعرف المسايرة.. وهذه الشدة، هذا التطرّف، هو الذي دفع زعيم الأنصار الكبير إلى مواقف كانت عليه أكثر مما كانت له..

..كان يستجيب في صدق لطبيعته وسجاياه.. شديد التثبت باقتناعه، وممعن في الإصرار على صراحته ووضوحه.. ويدلنا على هذه السجيّة فيه، موقفه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله بُعيد غزوة حنين..[٢]

السقيفة :

رحل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ربِّه في السنة الحادية عشرة من الهجرة، وإذا بهذا الصحابي أمام أحداث خطيرة وأمور جسام، بدأت أولاها في اليوم الأول لانتقال الروح المباركة الطاهرة لرسول الله صلى الله عليه وآله إلى بارئها تعالى، ومن داخل سقيفة بني ساعدة، حين اجتمعت الأنصار بأوسها وخزرجها تحت تلك السقيفة، وبكلمات سعد بن عبادة، الذي جاؤوا به وقد كان مريضاً، لم يستطع إيصال ما يريده إلاّ بواسطة ابنه قيس أو بعض بني عمِّه، لما ورده أنَّ رسول الله قد قبض:

إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي، ولكن تلق مني قولي فأسمعهموه، فكان سعد يتكلم، ويحفظ ابنه قيس قوله فيرفع صوته؛ لكي يسمع قومه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من

---

١. انظر سير أعلام النبلاء ١: ٢٧٠ .

٢. انظر رجال حول الرسول صلى الله عليه وآله سعد بن عبادة .

العرب، إنّ محمداً أو إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لبث بضع عشرة سنة في قومه، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلاّ رجال قليل، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أن يُعزّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدَّ الناس على عدوه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم، حتّى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، حتى أثخن الله عزَّوجلَّ لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض، وبكم قرير عين..!

ثمَّ أعلنها صريحةً واضحةً حين أمر الأنصار بأوسهم وخزرجهم قائلاً:

استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس! أو فشدّوا أيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحقّ الناس وأولاهم به!

فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت، ونوليك هذا الأمر، فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضا!

ولكنهم مع كلِّ هذا لم يغفلوا عن موقف المهاجرين، وماذا سيكون ردُّهم، فترادوا الكلام بينهم، فقالت طائفة منهم:

فإن أبت مهاجرة قريش، فقالوا:

نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام نازعوننا هذا الأمر بعده؟!

فأجابت طائفة منهم:

نقول لهم: منا أمير ومنكم أمير!

وما إن سمع سعد بن عبادة هذا الحوار بين المجتمعين حتى قطعت كلماته الصريحة التي لا غموض فيها ولا إلتواء أو مجاملة، مشخصاً حال المجتمعين وما سيؤول إليه كلامهم هذا من ضعف الموقف واختلال الرأي واضطرابه؛ بقوله:

هذا أول الوهن!

وفعلاً كان الواقع كما شخصه!

فما إن أتى عمر بن الخطاب خبرُ اجتماع السقيفة، بل وتفاصيل ما جرى فيها، حتى أرسل إلى أبي بكر وأخبره بذلك كلّه، وأنه قد حدث أمرٌ لا بدَّ لك من حضوره، ..فخرج إليه؛ فأعلمه الخبر: أما علمت الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة؛ يريدون أن يولّوا سعد بن عبادة ...؟!

يقول الخبر عن ابن إسحاق: ولما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير، في بني عبد الأشهل، فأتى آت إلى أبي بكر وعمر، فقال: إنّ هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله.

قال عمر: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه.

فمضيا لا فقط مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة سرّاً، ولم يُعلموا بمسيرهم أيًّا من الصحابة المجتمعين في المسجد النبوي ـ كما فعلت الأنصار من قبلهم حين اجتمعت سرّاً وبعيداً عن المسجد النبوي ومن فيه من المهاجرين ـ بل لم يعد عند هذا الثلاثي ثمة معنى لمزيد من الانتظار، وكأنّهم اتخذوا قرارهم وهم في طريقهم وحسموا أمرهم أنَّ الخلافة فيهم دون غيرهم من خزرج أو أوس أو بني هاشم، وكأن ليس ثمة خيار آخر أمام هؤلاء الثلاثة إلاّ ما اتفقوا عليه دون المسلمين جميعاً أن يكون أبو بكر أولاً فعمر ثانياً وأبوعبيدة ثالثاً، الذي تشبث به عمر مرشحاً ثالثاً للخلافة من بعده، حتى ظلَّ يردد أُمنيته هذه مرات حتى جعله أول ثلاثة مرشحين (أبو عبيدة ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة)، للخلافة

بعده، وكرر قوله حين طعن: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا لاستخلفته، فإن سـألني ربي عنه قلت: استخلفت أمين الله وأمين رسوله... لولا وفاته في عام ١٨هـ بالطـاعون في غـور الأردن ودُفن فيه كما في الخبر:

إنَّ عمر بن الخطاب لما طعن قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت. فقال: لـو كـان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته، وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هـذه الأمـة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لاستخلفته، وقلت لربي: إنَّ نبيك قال: إنَّ سالماً شـديد الحب لله. وفي نصّ آخر يقول عمر: لو كان معاذ بن جبل حياً لوليته.

وكذا لما سُئلت عائشة: «مَن كان رسول الله ﷺ مسـتخلفاً لـو اسـتخلفه؟»، قالـت: «أبوبكر»، فقيل لها: «ثم مَن بعد أبي بكر؟»، قالت: «عمر»، ثم قيل لها: «مَن بعـد عمـر؟»، قالت: «أبو عبيدة بن الجراح»...

وكان هؤلاء الثلاثة موضع أمنية الخليفة الثاني من أوائل المبايعين للخليفة الأول وله أيضاً؛ إلاّ سالم مولى أبي حذيفة الذي توفي سنة ١٢ هجرية قبل وفاة أبي بكر.[١]

وكأن ليس في الأمة غيرهم، وإذا كان الملاك مـا ورود فـيهم، فقـد ورد في غيرهـم الكثير الكثير، وخاصةً في الإمام عليٍّ عليه السلام مناقب وفضـائل ومواقـف..، والخليفـة يعلم بذلك جيداً، ولكن...!

وفعلاً كان لهم ما أرادوه إذ دخلوا عليهم السقيفة وهم مجتمعون، وكان فيهم سعد بن عبادة، قال عمر: فأتيناهم، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ فقالوا: وجع! وكنت قد زوّرت (أعددت) كلاماً أقوله لهم، فلما دنـوت أقول أسكتني أبوبكر، وتكلم بكل ما أردت أن أقول. فحمد الله وقـال: إنّ الله بعـث فينـا

١. انظر الكامل، لابن الاثير ٢، باب الشورى؛ طبقات ابن سعد ٣ : ٣٤٣؛ صحيح البخاري، باب مناقب الأنصار رقم الحديث ٣٥٩٥؛ تاريخ المدينة المنورة، لابن شبة، باب مقتل عمر؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي، ترجمة معاذ؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، ٢٣٨٥؛ وصيد الفوائد: أبو عبيدة .

رسولاً إلى خلقه، وشهيداً على أمته ليعبدوه ويوحدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، من حجر وخشب، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم إياه، وكلّ الناس لهم مخالف زأر (صوت الأسد) عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف (بغض) الناس لهم، فهم أول من عبد الله في هذه الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم فيه إلاّ ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم في الإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جُلّة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفاوتون بمشورة، ولا تُقضى دونكم الأمور.

وبعد مخاض أغلظ فيه بعضهم لبعض، لكنه لم يدم طويلاً، ولم يكن عسيراً بدرجة خطيرة، فقد حسم الأمر، يقول عمر: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة!

قال: فقلت: قتل الله سعد بن عبادة!

وتمّت بيعة السقيفة لأبي بكر، وتخلّف سعد بن عبادة عنها، قائلاً:

أما والله لو أنّ لي ما أقدر به على النهوض، لسمعتم مني في أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك، ولألحقتك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع، خاملاً غير عزيز!

فبايع الناس أبا بكر، حتى كادوا يطئون سعداً.

فقال سعد: قتلتموني. فقيل: اقتلوه قتله الله!

وفي نصٍّ آخر: فقالت الأنصار: قتلتم سعداً، وقد كانوا يطأونه.

فقال عمر: اقتلوه فإنه صاحب فتنة!

ثم قال عمر لسعد: لقد هممتُ أن أطأك حتى تندر عضدك!

فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر، وقال: والله لو حصصتَ منه شعرةً ما رجعتَ وفي

فيك واضحة!

فقال سعد بن عبادة: احملوني من هذا المكان، فحملوه فأدخلوه داره وترك أياماً.

ثم بعث إليه أبو بكر: أن أقبل فبايع، فقد بايع الناس، وبايع قومك!

وأبى سعد بن عبادة!

بغضّ النظر عن أخبار السقيفة واضطرابها، وأهداف انعقادها، واختلاف الأقوال والأفهام حولها، فإن المتحصّل الذي لا خلاف فيه أنَّ البيعة الأولى لأبي بكر بالخلافة حصلت، وأنَّ سعد بن عبادة لم يبايع أبداً لا في داخل السقيفة ولا في خارجها أي في بيعة المسجد، وبقي الرجل رافضاً لها غير معترف لما يدعى من شرعيتها؛ ولم يبايع أحداً، مع تهديدهم له وإصرارهم عليه.. وكيف يبايع وهو القائل:

أما والله حتى أرميكم بكلِّ سهم في كنانتي من نبل، وأخضب منكم سناني ورمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي، ولا والله لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربّي، وأعلم حسابي؟!

فلما أتى بذلك أبو بكر من قوله، قال عمر: لا تدعه حتى يبايعك.

فقال لهم بشير بن سعد: إنه قد أبى ولج، وليس يبايعك حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل ولده معه، وأهل بيته وعشيرته، ولن تقتلوهم حتى تقتل الخزرج، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم، فاتركوه فليس تركه بضاركم، وإنما هو رجل واحد، فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد، واستنصحوه لما بدا لهم منه.

فكان سعد لا يصلي بصلاتهم، ولا يجمع بجمعتهم، ولا يفيض بإفاضتهم، ولو يجد عليهم أعواناً لصال بهم، ولو بايعه أحد على قتالهم لقاتلهم، فلم يزل كذلك حتى ضاق صدره بهم، فغادر المدينة المنورة، بلده الحبيب حين مات أبي بكر وتولي عمر بن الخطاب الخلافة من بعده، وكانت آخر كلمات قالها لعمر بعد أن ولي الخلافة، وحين لقيه عمر ذات يوم في طريق من طرق المدينة، فقال: إيهٍ يا سعد! إيهٍ يا سعد! فقال سعد: إيهٍ يا عمر!

فقال عمر: أنت صاحب ما أنت صاحبه أو ما أنت عليه؟ فقال: نعم أنا ذلك، وقد أفضى إليك هذا الأمر، وكان صاحبك ـ والله ـ أحبَّ إلينا منك، وقد ـ والله ـ أصبحتُ كارهاً لجوارك. فقال عمر: من كره ذلك تحول عنه أو من كره جاراً جاوره تحوَّل عنه. فقال سعد: أما إني غير مستسرٍّ بذلك، وأنا متحول إلى جوار من هو خير من جوارك، أو إني متحول إلى جوار من هو خير منك!

إذن رفض سعد بن عبادة جوار خلافة عمر بن الخطاب، وتحوّل عنه لا في المدينة بل بعيداً عنه، فقد غادر المدينة المنورة بعد وفاة أبي بكر وتولي عمر بن الخطاب الخلافة إلى الشام للجهاد أو لغيره دون أن يتلوث موقفه الذي اقتنع به بأي شائبة أو بيعة لهما، لتختم حياته وسيرته مقتولاً بحوران الشام، ودفن في المنيحة، قرية من غوطة دمشق، وأنه مشهور يُزار إلى اليوم..

وقد اختلفت الأقوال في تاريخ ذلك: في خلافة أبي بكر فقد روى المدائني عن يحيى ابن عبد العزيز، عن أبيه، قال: مات في خلافة أبي بكر، وهذا يعني أنه غادر إلى الشام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يلبث بعدها إلاّ يسيراً. أو في خلافة عمر في السنة ١٤ أو ١٥ أو ١٦ هجرية أو في السنة الأولى من الخلافة الثانية.

قتلته الجنُّ !

وهي رواية أتباع السلطة، وقد وضعوا بيتين من الشعر على لسان هؤلاء الأبرياء من الجنّ، الذين اتُهموا ظلماً وبهتاناً بقتل هذا الصحابي الأنصاري الجليل:

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة	**ورميناه بسهمين فلم نُخطِ فؤاده**

فيما سجلت بعض المصادر اسم القاتل، وأنه رسول الخليفة إليه، أو من أمره أمير الشام يومئذ بذلك.

ففي أنساب الأشراف جاء التالي: ومات بحوران فجأة لسنة مضت من خلافة عُمَر. ويقال: إنه امتنع من البيعة لأبي بكر، فوّجه إليه رجلاً ليأخذ عليه البيعة وهو بحوران من أرض الشام. فأباها، فرماه فقتله. وفيه يروى الشعر الذي ينتحله الجنّ.

أما ابن أبي الحديد، فيذكر في الطعن الثالث عشر في (ذكر ما طعن به الشيعة في إمامة أبي بكر والجواب عنها) التالي:

الطعن الثالث عشر، قولهم: إنه كتب إلى خالد بن الوليد وهوعلى الشام يأمره أن يقتل سعد بن عبادة، فكمن له هو وآخر معه ليلاً، فلما مرَّ بهما رمياه فقتلاه، وهتف صاحب خالد في ظلام الليل بعد أن ألقيا سعداً في بئر هناك فيها ماء، ببيتين، يوهم أن ذلك شعر الجنّ، وأنّ الجنّ قتلت سعداً، فلما أصبح الناس فقدوا سعداً، وقد سمع قوم منهم ذلك الهاتف فطلبوه، فوجدوه بعد ثلاثة أيام في تلك البئر وقد اخضر، فقالوا: هذا مسيس الجنّ.

وقال الطاق، لسائل سأله: ما منع علياً أن يخاصم أبا بكر في الخلافة؟

فقال يا ابن أخي خاف أن تقتله الجنّ.

ثمَّ يُجيب ابن أبي الحديد عن هذا الطعن:

والجواب: أما أنا فلا أعتقد أنَّ الجنّ قتلت سعداً، و لا أنّ هذا شعر الجنّ. ولا أرتاب أنَّ البشر قتلوه، وأنّ هذا الشعر شعر البشر! ولكن لم يثبت عندي أنّ أبا بكر أمر خالداً، ولا أستبعد أن يكون فعله من تلقاء نفسه؛ ليرضى بذلك أبا بكر، وحاشاه فيكون الإثم على خالد، وأبو بكر بريء من إثمه.

ثم يختم جوابه قائلاً: وما ذلك من أفعال خالد ببعيد!

وروي أنه وقعت مناظرة بين مؤمن الطاق والإمام أبو حنيفة النعمان فقال أبو حنيفة لمؤمن الطّاق يوماً من الأيام: «لِمَ لم يطالب عليّ بن أبي طالب بحقه بعد وفاة رسول الله إن كان له حقٌّ؟». فأجابه مؤمن الطاق فقال: «خاف أن تقتله الجنّ كما قتلوا سعد بن عبادة بسهم المغيرة بن شعبة»، وفي رواية بسهم خالد بن الوليد!

ومما جاء في كتاب الدرجات الرفيعة.. ومات سعد بن عبادة بحوران وهي كورة بدمشق سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة. قيل قتله الجنّ لأنه بال قائماً في الصحراء ليلاً ورووا بيتين من شعر قيل إنهما سمعا ليلة قتله ولم ير قائلها...

ويقول قوم إنّ أمير الشام يومئذ أكمن له من رماه ليلاً وهو خارج إلى الصحراء

بسهمين فقتله لخروجه عن طاعة الإمام وقد قال بعض المتأخرين في ذلك:

يقولون سعد شكت الجن قلبه * ألا ربما صححت ذنبك بالعذر

وما ذنب سعد انه بال قائما * ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر

وقد صبرت عن لذة العيش أنفس * وما صبرت عن لذة النهى والأمر.[1]

بين قوسين :

(مؤمن الطاق وهو محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البجلي الكوفي ت ١٨٠هـ وأيضاً يسمى شيطان الطاق، واختلف في كونها مدحاً له لذكائه وسرعة بديهيته، وأنَّ أبا حنيفة النعمان أطلق عليه هذه التسمية لما وجده وقد غلب أحد الخوارج في مناظرة.. أو جاءت ذمًّا راح يسميه بها المناوئون له، أو لمكان سكنه في الكوفة... وكان من أصحاب كلٍّ من الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام كما نصّت كتب الرجال لعلماء الإماميّة وغيرهم.. وله مناظرات عديدة مع آخرين يختلفون معه في الرأي ومن فرق أخرى ...).

وسواء صحّت هذه الأخبار أو لم تصح، فالمصادر اتفقت على أنه رضوان الله عليه انتقل إلى جوار ربِّه مظلوماً في دار الغربة مقتولاً بعيداً عن أهله وبلده وأرضه، وهو مَن؟!

إنه سعد بن عبادة؛ الشخص الشريف الزعيم لقبيلة الخزرج وسيدها، الذي كما انفرد من ذي قبل بسبب إسلامه بتعذيب قريش له دون الآخرين ممن هم خارج مكة، انفرد في

١. السيرة النبوية، لابن هشام ٤ : أمر سقيفة بني ساعدة؛ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ٢١ـ٢٨؛ الكامل في التاريخ، لابن كثير: حديث السقيفة وخلافة أبي بكر؛ أُسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير؛ والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: ترجمة سعد بن عبادة؛ أنساب الأشراف، للبلاذري١ : ترجمة سعد بن عبادة٥٧٣ ـ ومن بني ساعدة بْن كعب بْن الخزرج؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٧ : ٢٢٤؛ الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، للسيد علي خان المدني : ٣٣٤ .

ختام حياته أن يعيش بسبب إسلامه غريباً بعيداً عن وطنه وما فيه، ويموت وحيداً بسبب إسلامه كما مات من بعده وحيداً غريباً الصحابي الجليل أبوذرٍّ رضوان الله تعالى عليه! ومن قبلهما الصحابي الجليل مالك بن نويرة، الذي قتله قائد جيش الخلافة خالد بن الوليد جاعلاً رأسه أحد أثافي قدر طبخ فيها طعام، ونزى على زوجته.. (انظر العدد٤١ ميقات الحج: قراءة في ظاهرة الردة)، وهكذا هو شأن الصالحين، أصحاب المواقف النبيلة وضحايا الرأي الجريء..

قتلوه؛ لا لذنب اقترفه أبداً، بل تنكيلاً به، وأن يكون عبرةً لكل من يرفض الخنوع للسلطة، وغاب عنهم أنه أبى إلاّ أن يكتب بيده لا بيد غيره تاريخاً خاصاً به، لم يستطع أحدٌ تزيفه وتحريفه! وأنه استشهد مخلصاً لمبادئه التي آمن بها، ووفاءً لموقفه والتزاماً برأيه أنَّ هؤلاء القوم ليسوا جديرين أو أجدر منه بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله خاصةً بعد أن تركوا أهل بيته صلوات الله عليهم خلف ظهورهم، وسواء رآها حقّاً لمن ولاّه رسول الله صلى الله عليه وآله أو رآها لنفسه، أو لكي لا يترك الأنصار تبعاً لمن خَبرهم وعرفهم، وأنهم لم يبلغوا الدرجة التي تؤمن للأنصار حقّهم ومنزلتهم وعزّتهم وكرامتهم؛ حسب اختلاف روايات السقيفة وما دار فيها..

❁ ❁ ❁

وإن لم تمت يا سعد شهيداً في معارك الإسلام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وكنت حريصاً عليها، فقد متَّ مقتولاً غريباً مظلوماً؛ فنلت أجر الشهادة، وقد فزت بها وأنت تقف هناك بين يدي مليك مقتدر تشهد لك مواقفك الشجاعة، وعطاؤك الكريم، وسخاؤك منقطع النظير، وثروتك الطائلة، ووجاهتك في قومك، وقد وضعتها كلَّها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله متفانياً في نصرته صلى الله عليه وآله وخدمةً للإسلام الذي وهبته حياتك ومالك وحشاشة قلبك، ونصرةً للمسلمين، وإعانةً للمهاجرين بالذات حتى كنت نعم المأوى لهم،..

وأخيراً رحلتَ شهيداً؛ شهيد الموقف الحقِّ، والكلمة الصادقة، والسيرة الحسنة، وانتقلت أبيًّا عزيزاً عن قوم لم يُنصفوك، ولم يكونوا أوفياء لجهودك وعطائك ومواقفك! إلى

حيث العدل المطلق، إلى الله الذي ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ حيث تحفّك الرحمة ويغمرك الرضوان.

﴿...وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.[1]

فسلام عليك من عبدٍ مؤمنٍ صالحٍ أبيٍّ قوي عزيز!

۞ ۞ ۞

١. سورة الأحقاف : ٢٧ .